تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الحادي والعشرون

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

الطبعة الأولى
١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء الحادى والعشرون

وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩) .

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

الجدل : الحجاج والمناظرة ، مسلمون : أى خاضعون مطيعون ، والجحد : نفى ما فى القلب ثبوته أو إثبات ما فى القلب نفيه ؛ والمراد به هنا الإنكار عن علم ، والارتياب : الشك ، الظالمون : أى الذين ظلموا أنفسهم وجحدوا وجه الحق .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه طريق إرشاد المشركين وجدالهم بالخشن من القول ، والمبالغة فى تسفيه آرائهم وتوهين شبههم بنحو قوله : « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ » وقوله : « لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا » إلى أشباه ذلك — أردف هذا بذكر طريق إرشاد أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأن يسلك معهم طريق الحجاج بالحسنى، ولا يسفه آراءهم، ولا ينسب إلى الضلال آباءهم.

ذاك أن المشركين جاءوا بالمنكر من القول ونسبوا إلى الله ما لا ينبغى من الشريك والولد ، أما أهل الكتاب فقد اعترفوا بالله وأنبيائه ، لكنهم أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا إن شريعتهم باقية على وجه الدهر لا تنسخ بشريعة أخرى ، فينبغى إقناع مثل هؤلاء بالحسن من القول ولفت أنظارهم إلى الأدلة الباهرة الدالة على نبوته وصدق رسالته بما يكون لهم فيه مقنع وبما لو تأملوا فيه وصلوا إلى الصواب وأدركوا الأمر على الوجه الحق ، إلا من ظلموا منهم وعاندوا ولم يقبلوا النصح والإرشاد فاستعملوا معهم الغلظة فى القول والأسلوب الجافّ فى الحديث ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ويتأملون فيما يقنعهم من الحجج والبراهين .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم : آمنا بالذى أنزل إلينا من القرآن وأنزل إليكم من التوراة والإنجيل ، وإن إلهنا وإلهكم واحد ونحن مطيعون له .

ثم ذكر أن من أهل الكتاب من يؤمن بالقرآن ، كما أن من أهل مكة من يؤمن به ، وما يجحد به إلا من توغل فى الكفر ، وعدم حسن التأمل والفكر ، إذ لا ريب فى صدق رسوله وأن كتابه منزل من عند ربه ، فإن رجلا أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يتعلم العلم ولم يدارس إنسانا مدى حياته يأتى بهذه الحكم والأحكام وجميل الآداب ومكارم الأخلاق ، مما لم يكن له مثيل فى محيط نشأ به، ولا فى بلد كان يأوى به — لمن أكبر الأدلة على أنه ليس من عند بشر، بل أوتيه من لدن حكيم خبير.

الإيضاح

(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم) أى ولا تجادلوا من أراد الاستبصار فى الدين من اليهود والنصارى إلا باللين والرفق ، وقابلوا الغضب بكظم الغيظ ، والشغب بالنصح ، والسَّوْرَة بالأناة .

ونحو الآية قوله : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » وقوله : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » وقوله لموسى وهرون حين بعثهما إلى فرعون « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » .

إلا من ظلموا منهم وحادوا عن وجه الحق وعموا عن واضح الحجة وعاندوا وكابروا ولم يُجْدِ فيهم الرفق ، فمثل هؤلاء لا ينفع فيهم إلا الغلظة :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضرّ كوضع السيف فى موضع الندى

قال سعيد بن جبير ومجاهد : المراد بالذين ظلموا منهم — الذين نصبوا القتال للمسلمين وآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجادلهم بالسيف حتى يُسلموا أو يعطوا الجزية .

(وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) أى إذا حدثكم أهل الكتاب عن كتبهم وأخبروكم عنها بما يمكن أن يكونوا صادقين فيه وأن يكونوا كاذبين ولم تعلموا حالهم فى ذلك — فقولوا لهم : آمنا بالقرآن الذى أنزل إلينا والتوراة والإنجيل اللذين أنزلا إليكم ، ومعبودنا ومعبودكم واحد ونحن خاضعون له ، منقادون لأمره ونهيه والطاعة له .

روى البخارى والنسائى عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل

إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » وروى عبد الله بن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق ، وإما أن تصدقوا بباطل » وفى البخارى عن حُمَيد ابن عبد الرحمن سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة ، وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدّثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب .

ثم بين أنه لاعجب فى إنزال القرآن على الرسول فهو على مثال ما أنزل من الكتب من قبل فقال :

(وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به) أى كما أنزلنا الكتب على من قبلك أيها الرسول ـ أنزلنا إليك هذا الكتاب ، فالذين آتيناهم الكتب ممن تقدم عهدك من اليهود والنصارى يؤمنون به إذ كانوا مصدقين بنزوله على حسب ما علموا عندهم من الكتاب ، ومن كفار قريش وغيرهم من يؤمن به .

(وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) أى وما يكذب بآياتنا ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ويغطى ضوء الشمس بالوصائل ويغمط حق النعمة عليه وينكر التوحيد عنادا واستكبارا .

ثم ذكر ما يؤيد إنزاله ويزيل الشبهة فى افترائه فقال :

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) أى وما كنت من قبل إنزال الكتاب إليك تقدر أن تتلو كتابا ولا تخطه بيمينك : أى ليس من دأبك وعادتك ذلك ، إذ لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط أو ممن يعتادها لارتاب المشركون وقالوا لعله التقط ذلك من كتب الأوائل، ولما لم يكن أمره هكذا لم يكن لارتيابهم وجه .

قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون فى كتبهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم لايخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية .

وخلاصة ما سلف — إنك قد لبثت فى قومك عمرا طويلا قبل أن تأتى بهذا القرآن ، لا تقرأ ولا تكتب ، وكل واحد من قومك يعرف أنك أمى لاتقرأ ولا تكتب ، وهذه صفتك فى الكتب المتقدمة كما قال : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ » .

فلا وجه إذاً للشك فى أن هذا القرآن منزل من عند الله وليس مفتعلا من صنع يدك تعلمته من الكتب المأثورة عمن قبلك كما حكى سبحانه عنهم من نحو قولهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » .

ثم أكد ما سلف و بين أنه منزل من عند الله حقا فقال :

(بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) أى بل هذا القرآن آيات واضحات الدلالة على الحق ، يسر الله حفظها وتفسيرها للعلماء كما قال : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ . فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ » .

روى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبى إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر ، و إنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » .

(وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) أى وما يكذب آياتنا و يبخس حقها و يردها إلا المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق و يحيدون عنه .

ونحو الآية قوله « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » .

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الدليل على أن القرآن من عند الله وليس بمفترى من عند محمد صلى الله عليه وسلم ـ أردف هذا بشبهة أخرى لهم وهى أنهم طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم أن يأتى لهم بمعجزة محسوسة كما أتى بذلك الأنبياء السابقون كناقة صالح وعصا موسى ، فأجابهم بأن أمر ذلك إلى الله لا إليه ؛ فلو علم أنكم تهتدون بها لأجابكم إلى ما طلبتم ، ثم بين سخف عقولهم وطلبهم الآيات الدالة على صدقه بعد أن جاءهم بالمعجزة الباقية على وجه الدهر وهى القرآن يتلى عليهم آناء الليل وأطراف النهار ، فيه خبر من قبلهم ونبأ من بعدهم وحكم ما بينهم ، وفيه بيان الحق ودحض الباطل ، وفيه ذكرى حلول العقاب بالمكذبين والعاصين .

ثم أبان أن الله شهيد على صدقه وهو العليم بما فى السموات والأرض ، ثم هدد الكافرين بأن كل من يكذب رسل الله بعد قيام الأدلة على صدقهم ، ويؤمن بالجبت والطاغوت فقد خسرت صفقته ، وسينال العقاب من ربه جزاء وفاقا على جحوده وإنكاره .

أخرج الدارمى وأبو داود عن يحيى بن جعدة قال: جاء ناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « كفى بقوم حمقا أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم »

فنزلت « أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ » الآية . وأخرج البخارى عند تفسير الآية قوله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن » أى يستغن به عن غيره . وعن عبد الله ابن الحرث الأنصارى قال: «دخل عمر بن الخطاب على النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيرا شديدا لم أر مثله قط ، فقال عبد الله ابن الحرث لعمر : أما ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا ، فسرِّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم ، أنا حظكم من النبيين وأنتم حظى من الأمم » أخرجه عبد الرزاق .

الإيضاح

(وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) أى وقال كفار قريش تعنتا وعنادا . هلا أنزل على محمد آية من الآيات التى أنزل مثلها على رسل الله الماضين كناقة صالح وعصا موسى وأشباههما من المعجزات المحسوسة التى ترى رأى العين ، فيكون ذلك أقبل لدى النفوس وأدهش للعقول ، فتلجئ إلى التصديق بمن تظهر على يده المعجزة .

فأمره الله أن يجيبهم بقوله :

(قل إنما الآيات عند الله) أى قل لهم : إنما أمر الآيات ونزول المعجزات إلى الله ، ولو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى ما سألتم ، لأن ذلك سهل يسير عليه ، ولكنه يعلم أنكم إنما قصدتم بذلك التعنت والامتحان ، فهو لا يجيبكم إلى ما طلبتم كما قال سبحانه « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا » .

(وإنما أنا نذير مبين) أى ليس من شأنى إلا الإنذار بما أوتيت من الآيات ، لا الإتيان بما اقترحتموه منها ، فعلىّ أن أبلغكم رسالة ربى وليس على هدا كم كما قال

« وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا » وقال : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ولَـكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » .

ثم بين سبحانه سخفهم وجهلهم ، إذ كيف يطلبون الآيات مع نزول القرآن عليهم فقال :

(أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الـكتاب يتلى عليهم) أى أما كفاهم دليلا على صدقك إنزالنا الـكتاب عليك يتلونه و يتدارسونه ليل نهار وأنت رجل أمى لاتقرأ ولا تكتب ولم تخالط أحدا من أهل الـكتاب ، وقد جئتهم بأخبار ما فى الصحف الأولى و بينت الصواب فيما اختلفوا فيه كما قال : « أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأولَى » .

ثم بين فضائل هذا الـكتاب ومزاياه فقال :

(إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) أى إن فى هذا الـكتاب الباقى على وجه الدهر ـ لرحمة لمن آمن به ببيان الحق و إزالة الباطل ، وتذكرة بعقاب الله الذى حل بالمكذبين قبلـكم و بما سيحل بهم من النكال والوبال ، و بما سيكون لمن اتبع سنتهم وكذب بالآيات بعد وضوحها .

و بعد أن أقام الأدلة على صدق رسالته ، و بين أن المعاندين من أهل الـكتاب والمشركين لم يؤمنوا به ـ أمره أن يكل علم ذلك إلى الله وهو العليم بصدقه وكذبه فقال :

(قل كفى بالله بينى و بينكم شهيدا) أى كفى الله عالما بما صدر منى من التبليغ والإنذار ، و بما صدر منكم من مقابلة ذلك بالتكذيب والإنكار ، وهو المجازى كلا بما يستحق ، و إنى لو كنت كاذبا عليه لانتقم منى كما قال : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْـكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ» بل إنى صادق فيما أخبرتكم به ، ومن ثم أيدنى بالمعجزات الواضحات ، والدلائل القاطعات .

ثم علل كفايته وأكدها بقوله :

(يعلم ما فى السموات والأرض) أى هو العليم بكل ما فيهما ، ومن جملته شأنى وشأنكم ، فيعلم ما تنسبونه إلىّ من التقوّل عليه ، وبما أنسبه إليه من القرآن الذى يشهد لى به عجزكم عن الإتيان بمثله ، فهو حجتى الفالجة عليكم ، التى لم تستطيعوا لها ردا ولا دفعا .

ولما بين طريق إرشاد كل من أهل الكتاب والمشركين ـ عاد إلى التهديد والإنكار عليهما ، فقال :

(والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) أى والذين يعبدون الأوثان والأصنام ويكفرون بالله ، مع تظاهر الأدلة التى فى الآفاق والأنفس على الإيمان به ، ويكفرون برسوله مع تعاضد البراهين على صدقه ، أولئك هم الأخسرون أعمالا ، المغبونون فى صفقتهم ، من حيث اشتروا الكفر بالإيمان ، فاستوجبوا العقاب حين الوقوف بين يدى الملك الديّان .

وخلاصة ذلك : إن الله سيجزيهم على ما صنعوا من تكذيبهم بالحق ، واتباعهم للباطل ، وتكذيبهم برسول الله ، مع قيام الأدلة على صدقه « نَاراً تَلَظَّى . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى » .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) .

المعنى الجملى

بعد أن أنذر الكافرين بالعذاب، وهدّدهم أعظم تهديد قالوا له تهكما واستهزاء: إن كان هذا حقا فأتنا به، وهم يقطعون بعدم حصوله، فأجابهم بأنه لايأتيكم بسؤالكم ولايعجل باستعجالكم، لأن الله أجّله لحكمة، ولولا ذلك الأجل المسمى، الذى اقتضته حكمته، وارتضته رحمته، لعجله لكم ولأوقعه بكم، وإنه ليأتينكم فجأة وأنتم لاتشعرون به، ثم تعجب منهم فى طلبهم الاستعجال، وهو سيحيط بهم فى جميع نواحيهم، ويقال لهم على طريق الإهانة والتوبيخ: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون.

الإيضاح

(ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب) أى ويستعجلك كفار قريش بنزول العذاب، بنحو قولهم: «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ»، وقولهم: «أَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» ولولا أجل مسمى، قد ضربه الله لعذابهم، لجاءهم حين استعجالهم إياه.

(وليأتينهم بغتة وهم لايشعرون) أى وليأتينهم العذاب فجأة، وهم لايشعرون بمجيئه، بل يكونون فى غفلة عنه، واشتغال بما ينسيهم إياه.

ثم زاد فى التعجب من جهلهم بقوله:

(يستعجلونك بالعذاب) أى وهم يطلبون منك إيقاع العذاب ناجزا فى غير ميقاته، ولو علموا ما هم صائرون إليه، لتمنوا أنهم لم يخلقوا؛ فضلا عن أن يستعجلوا، ولأعملوا جميع جهدهم فى الخلاص منه.

ثم بين السبب فى جهلهم وحمقهم، فقال:

(وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) أى وإن جهنم ستحيط بالكافرين المستعجلين للعذاب يوم القيامة.

ثم ذكر كيف تحيط بهم ، فقال :

(يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) أي يوم يجللهم العذاب ، ويكون من الأهوال والأحوال ما لا يفى به المقال، ويقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: (ذوقوا ما كنتم تعملون) وهذا عذاب معنوى أشد ألما من العذاب الحسى فى نار جهنم .

ونحو الآية قوله : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » وقوله : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » وقوله : «لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ » الآية ، وقوله : «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ» وقوله : « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا. هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » .

يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال المشركين ، وأحوال أهل الكتاب ، وأنذرهما بالخسران ، وجعلهما من أهل النار ــ اشتد عنادهم وآذوا المؤمنين ومنعوهم من العبادة ، فأمرهم الله بالهجرة إلى دار أخرى إن تعذرت عليهم العبادة فى ديارهم .

ولما كانت مفارقة الأوطان عزيزة على النفس كريهة لديها ، بين لهم أن المكروه واقع لامحالة إنْ لم يكن بالهجرة فهو حاصل بالموت ، فأولى بكم أن يكون ذلك فى سبيل الله لتنالوا جزاءه ومرجعكم إلى ربكم ، وحينئذ تنالون من النعيم المقيم ما لاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، فهنالك الغرف التى تجرى من تحتها الأنهار ، ونعم هذا الأجر جزاء للعاملين الصابرين المتوكلين على ربهم ، الذين يعلمون أن الله قد تكفل بأرزاقهم ، كما تكفل بأرزاق جميع مخلوقاته ، وهو السميع لدعائهم ، العليم بحاجتهم .

روى أن الآية نزلت فى قوم تخلفوا عن الهجرة ، وقالوا : نخشى إن نحن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة .

الإيضاح

(ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون) أى ياعبادى الذين وحدونى وآمنوا بى وبرسولى محمد صلى الله عليه وسلم إن أرضى لم تضق عليكم فتقيموا منها بموضع لايحل لكم المقام فيه ، فإذا انتشرت فى موضعٍ ما معاصى الله ، ولم تقدروا على تغييرها ، فهربوا منه إلى موضع آخر تتمكنون من القيام فيه بشعائر دينكم .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « البلاد بلاد الله والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيراً فأقم » ومن ثم لما ضاق على المستضعفين مقامهم بمكة خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين لدى أصحمة النجاشى ملك الحبشة ، فآواهم وأيدهم بنصره وأنزلهم ضيوفا مكرمين ببلاده ، ثم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة الباقون إلى المدينة .

والخلاصة : إن الله أمر المؤمنين بالهجرة إن لم يتسنّ لهم إقامة شعائر دينهم ، إلى أرض يستطيعون فيها ذلك .

ثم حث على إخلاص العبادة له والهجرة من الوطن ، فبين أن الدنيا ليست دار بقاء وأن وراءها دار الجزاء التى يؤتى فيها كل عامل جزاء عمله فقال :

(كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون) أى أينما تكونوا يدرككم الموت ، وكونوا فى طاعة الله وافعلوا ما أمركم به ، فذلك خير لكم ، فإن الموت لامحالة آت ، ولله در القائل :

المَوت فى كل حين يَنْشُد الكفنا ونحن فى غفلة عما يُراد بنا
لاتركننّ إلى الدنيا وزهرتها وإن توشحت من أثوابها الحسنا
أين الأحبة والجيران ما فعلوا أين الذين همُ كانوا لها سكنا؟
سقاهم الموت كأسا غير صافية صيَّرتهمُ تحت أطباق الثرى رُهُنا

ثم إلى الله مرجعكم ، فمن كان مطيعا له جازاه خير الجزاء وآتاه أتم الثواب .

والخلاصة لايصعبن عليكم ترك الأوطان مرضاة للرحمن ، بل هاجروا إلى أوفق البلاد وإن بعدت ، فإن مدى الدنيا قريب ، والموت لامحيص منه ، ثم إلى ربكم ترجعون ، فيوفيكم جزاء ما تعملون ، فقدموا له خير العمل تفوزوا بنعيم مقيم ، وجنة عرضها السموات والأرض .

ثم بين جزاء المؤمن بربه ، المهاجر بدينه فرارا من شرك المشركين ، فقال :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين) أى والذين صدّقوا الله ورسوله فيما جاء به من عنده ، وعملوا بما أمرهم به ، فأطاعوه وانتهوا عما نهاهم عنه لننزلنهم من الجنة علالىّ وقصوراً تجرى من تحت أشجارها الأنهار ماكثين فيها إلى غير نهاية جزاء لهم على ما عملوا ونعم الجزاء .

ثم بين صفات هؤلاء العاملين الذين استحقوا تلك الجنات بقوله :

(الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) أى هؤلاء العاملون هم الذين صبروا على

أذى المشركين وشدائد الهجرة وغيرهما من الجهود والمشاقّ ، وتوكلوا على ربهم فيما يأتون وما يذرون كأرزاقهم وجهاد أعدائهم ، فلا ينكُلون عنهم ، ولايتراجعون ثقة منهم بأن الله مُعْلٍ كلمتهم ، وموهن كيد الكافرين ، وأن ما قسم لهم من الرزق لن يفوتهم .

ثم ذكر سبحانه مايعين على التوكل عليه وأنه الكافى أمر الرزق فى الوطن والغربة فقال :

(وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) أى هاجروا أيها المؤمنون بالله ورسوله ، وجاهدوا أعداءه ، ولا تخافوا عَيْلة ولا إقتارا ، فكم من دابة ذات حاجة إلى الغذاء والمطعم لاتطيق جمع قوتها ولا حمله ، فترفعه من يومها لغدها عجزا منها عن ذلك ، الله يرزقها وإياكم يوما بيوم وساعة فساعة ، وهو السميع لقولكم نخشى من فراق أوطاننا العَيْلة ، العليم بما فى أنفسكم ، وإليه يصير أمركم وأمر عدوكم من إذلال الله إياه ونصرتكم عليه ، ولا تخفى عليه خافية من أمور خلقه .

روى ابن عباس « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون : أخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة ، قالوا ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا فنزلت الآية » .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) .

المعنى الجملى

لما بين الأمر للمشركين وذكر لهم سوء مغبة أعمالهم ـ خاطب المؤمنين بما فيه مدّكر لهم ، وذكر ما يكون إرشادا للمشرك لو تأمله وفكر فيه ، ومَثل هذا مثل الوالد له ولدان : أحدهما رشيد والآخر مفسد ، فهو ينصح المفسد أوّلا ، فإن لم يسمع يعرض عنه ويلتفت إلى الرشيد قائلا : إن هذا لا يستحق أن يخاطب ، فاسمع أنت ولا تكن كهذا المفسد ، فيكون فى هذا نصيحة المصلح وزجر للمفسد ودعوة له إلى سبيل الرشاد .

الإيضاح

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخرالشمس والقمر ليقولن الله) أى ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله : من خلق السموات والأرض فسواهن ، وسخر الشمس والقمر يجريان دائبين لمصالح خلقه ؟ ليقولُنّ : الذى خلق ذلك وفعله هو الله .

(فأنى يؤفكون ؟) أى فكيف يُصرفون عن توحيده وإخلاص العبادة له بعد إقرارهم بأنه خالق كل ذلك .

والخلاصة — إنهم يعترفون بأنه هو الخالق للسموات والأرض والمسخر للشمس والقمر ، ثم هم مع ذلك يعبدون سواه ويتوكلون على غيره ، فكما أنه الواحد فى ملكه فليكن الواحد فى عبادته ، وكثيرا ما يقرر القرآن توحيد الألوهية بعد الاعتراف بتوحيد الربوبية التى كانوا يدينون بها بنحو قولهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك .

ولما ذكر اعترافهم بالخلق ذكر حال الرزق من قِبَل أن كمال الخلق ببقائه ، ولا بقاء له إلا بالرزق فقال :

(الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر له) أى إن الله يوسع رزقه على من يشاء من خلقه ، ويقتر على من يشاء ، فالأرزاق وقسمتها بيده تعالى لا بيد أحد سواه ،

فلا يؤخرنكم عن الهجرة وجهاد عدوكم خوف العَيْلة والفقر ، فمن بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق عباده .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » .

ثم علل هذا التفاوت فى الرزق بين عباده بعلمه بالمصلحة فى ذلك فقال :

(إن الله بكل شىء عليم) أى إنه هو العليم بمصالحكم ، فيعلم من يصلحهم البسط ومن يفسدهم ويعطيهم على حسب ذلك إن شاء .

ثم ذكر اعترافهم بهذا بقوله :

(ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) أى ولئن سألتهم من ينزل من السحاب ماء فيحيى به الأرض القفر فتصير خضراء تهتز بعد أن لم تكن كذلك ـ لم يجدوا إلا سبيلا واحدة، وهى الاعتراف الذى لا محيص منه بأنه الله فهو الموجد لسائر المخلوقات ، ومن عجب أنهم بعد ذلك يشركون به بعض مخلوقاته التى لا تقدر على شىء من ذلك .

ولما أثبت أنه الخالق بدءا وإعادة ـ نبه إلى عظمة صفاته التى يلزم من إثباتها صدق رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

(قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون) أى قل متعجبا من حالهم : الحمد لله على إظهار الحجة واعترافهم بأن النعم كلها منه تعالى ، ولكن أكثر المشركين لا يعقلون ما هم فيه من النفع فى دينهم وما فيه الضر لهم ، فهم لجهلهم يحسبون أنهم لعبادتهم الآلهة دون الله ينالون بها الزلفى والقرب عنده .

والخلاصة ـــ إن أقوالهم تخالف أفعالهم ، فهم يقرون بوحدانية الله وعظيم قدرته وجلاله ، ثم هم يعبدون معه سواه مما هم معترفون بأنه خلقه .

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ

لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) .

شرح المفردات

اللهو : الاستمتاع باللذات ، واللعب : هو العبث وما لافائدة فيه ، الحيوان : أى الحياة التامة التى لا فناء بعدها .

المعنى الجملى

لما ذكر فيما سلف أنهم يعترفون بأن الله هو الخالق وأنه هو الرازق وهم بعد ذلك يتركون عبادته ويعبدون من دونه الشركاء اغترارا بزخرف الدنيا وزينتها ـ أردف ذلك بأن هـذه الدنيا باطل وعبث زائل ، وإنما الحياة الحقة هى الحياة الآخرة التى لا فناء بعدها ؛ فلو أوتوا شيئا من العلم ما آثروا تلك على هذه .

ثم أرشد إلى أنهم مع إشراكهم بربهم سواه فى الدعاء والعبادة ، إذا هم ابتلوا بالشدائد كما إذا ركبوا البحر وعلتهم الأمواج من كل جانب وخافوا الغرق نادوا الله معترفين بوحدانيته وأنه لامنجّى سواه ، وليتهم استمروا على ذلك ، ولـكن سُرْعان ما يرجعون القهقرى ويعودون سيرتهم الأولى كما هو دأب من يعمل للخوف لاالعقيدة.

الإيضاح

(وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب) أى وما هذه الحياة الدنيا التى يتمتع بها هؤلاء المشركون إلا شىء يتعلل به ، ثم هو منقض عما قريب لابقاء له ولا دوام ، ومن ثم قيل : الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها ، وأنشد :

تروح لنا الدنيا بغير الذى غدت وتحدث من بعد الأمور أمور
وتجرى الليـالى باجتماع وفرقة وتطلع فيهـــا أنجم وتغور

فمن ظن أن الدهر باق سروره ... فذاك محال لايدوم سرور
عفا الله عمن صير الهمّ واحدا ... وأيقن أن الدائرات تدور

(وإن الدار الآخرة لهى الحيوان) أى وإن الدار الآخرة لهى دار الحياة الدائمة التى لا زوال لها ولا انقطاع .

(لو كانوا يعلمون) أى لو كانوا يعلمون أن ذلك كذلك لما آثروا عليها الحياة الدنيا السريعة الزوال الوشيكة الاضمحلال .

ثم أخبر بأن تلك حال المشركين فى الرخاء ، فإذا ابتلوا بالشدائد دعوا الله وحده ليخلصهم منها كما قال :

(فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) أى فإذا ركب هؤلاء المشركون فى السفينة وخافوا الغرق دعوا الله وحده وأفردوا له الطاعة ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم ، ليخلصوهم من تلك الشدة ، فهلا يكون هذا منهم دائما .

ثم بين سرعة رجوعهم وعودتهم إلى ما كانوا عليه وشيكا فقال :

(فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) أى فلما خلصهم مما كانوا فيه من الضيق ونجاهم من الهلاك ووصلوا إلى البر رجعوا القهقرى وعادوا سيرتهم الأولى وجعلوا مع الله الشركاء ودعوا الآلهة والأنداد .

ونحو الآية قوله « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا » .

روى محمد بن إسحاق فى السيرة عن عِكْرمة بن أبى جهل قال : « لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ذهبت فارّا منها ، فلما ركبت البحر إلى الحبشة اضطربت بنا السفينة ، فقال أهلها : ياقوم أخلصوا لربكم الدعاء فإنه لامنجّى هاهنا إلا هو ، فقال عكرمة : لئن كان لاينجى فى البحر غيره فإنه لاينجى فى البر أيضا غيره ، اللهم لك على عهد لئن خرجت لأذهبنّ فلأضعن يدى فى يد محمد فلأجدنه رءوفا رحيما فكان كذلك » .

وقال عكرمة : كان أهل الجاهلية إذا ركبوا فى البحر حملوا معهم الأصنام ، فإذا اشتد عليهم الريح ألقوها فيه وقالوا يا رب يا رب .

قال الرازى فى اللوامع : وهذا دليل على أن معرفة الرب فى فطرة كل إنسان ، وأنهم إن غفلوا فى السراء فلا شك أنهم يلوذون إليه فى حال الضراء اه .

(ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا) أى يشركون لتكون عاقبة أمرهم الكفران بما آتيناهم من نعمة النجاة ، وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادّهم عليها .

ثم تهددهم وتوعدهم فقال :

(فسوف يعلمون) عاقبة ذلك حين يعاقبون يوم القيامة .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المشركين حين يشتد بهم الخوف إذا ركبوا فى الفلك ونحوه لجئوا إلى الله وحده مخلصين له العبادة ـ ذكر هنا أنهم حين الأمن كما إذا كانوا فى حصنهم الحصين وهو مكة التى يأمن من دخلها من الشرور والأذى يكفرون به ويعبدون معه سواه ، وتلك حال من التناقض لا يرضاها لنفسه عاقل ، فإن دعاءهم إياه حال الخوف مع الإخلاص ما كان إلا ليقينهم بأن نعمة النجاة منه لا من سواه ، فكيف يكفرون به حين الأمن ، وهم يوقنون بأن الأصنام حين الخوف لا تجديهم فتيلا ولا قطميرا ؟.

الإيضاح

(أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ؟) أى أو لم ير هؤلاء المشركون من قريش ما خصصناهم به من النعمة دون سائر عبادنا ، فأسكناهم بلداً حرّمنا على الناس أن يدخلوه لغارة أو حرب ، وآمنا من سكنه من القتل والسبى والناس من حولهم يقتلون ويُسْبَوْن فى كل حين ، فيشكرونا على ذلك ، ويزدجروا عن كفرهم بنا وإشراكهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم .

والخلاصة : إنه تعالى يمتنّ على قريش بما أحلهم من حرمه الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن دخله كان آمنا ، فهم فى أمن عظيم ، والأعراب حولهم نهب مقسم يقتل بعضهم بعضا ، ويسبى بعضهم بعضا ، ثم هم مع ذلك يكفرون به ويعبدون معه سواه .

ونحو الآية قوله : « لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ . وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » .

ثم بين أن العقل كان يقضى بشكرهم على هذه النعمة ، لكنهم كفروا بها وما جنحوا إلى مرضاة ربهم ، فقال :

(أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ؟) أى أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد ، وبدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ، فكفروا بنبى الله وعبده ورسوله .

والخلاصة : إنه كان من حق شكرهم له على هذه النعم إخلاص العبادة له وألا يشركوا به وأن يصدّقوا برسوله ويعظموه ويوقروه ، لكنهم كذبوه فقاتلوه وأخرجوه من بين أظهرهم ، ومن ثم سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم ، بقتل من قتل منهم ببدر ، وأسر من أسر ، حتى قطع دابرهم يوم الفتح ، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم .

ولما استنارت الحجة ، وظهر الدليل ، ولم يكن لهم فيه مقنع ، بين أنهم قوم ظلمة مفترون وضعوا الأمور فى غير مواضعها بكذبهم على الله ، فقال :

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه) أى ومن أظلم ممن كذبوا على الله ، بأن زعموا أن له شريكا ، وأنهم إذا فعلوا فاحشة قالوا : إن الله أمرنا بها ، والله لا يأمر بالفحشاء ، وكذبوا بالكتاب حين مجيئه ، دون أن يتأملوا فيه أو يتوقفوا ، بل سارعوا إلى التكذيب أول ماسمعوه .

وفى هذا من تسفيه آرائهم ، وتقبيح طرائقهم ما لا يخفى .

ثم بين سوء مغبة أعمالهم بطريق الاستفهام التقريرى ، وهو أبلغ فى إثبات المطلوب ، فقال :

(أليس فى جهنم مثوى للكافرين ؟) أى ألا يستوجب هؤلاء الكافرون من أهل مكة الثواء فى جهنم ، وقد افتروا على الله مثل هذا الكذب ، وكذبوا بالكتاب لما جاءهم بلا تريّث ولا تلبث ؟.

والخلاصة : إن مثوى هؤلاء وأشباههم جهنم وبئس المصير .

وبعد أن بين عاقبة أولئك الكافرين ذكر عاقبة المؤمنين الذين اهتدوا بهدى الله وجاهدوا فى سبيله ، فقال :

(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) أى والذين قاتلوا هؤلاء المفترين على الله الكذب ، المكذبين لما جاءهم به رسوله ، مبتغين بقتالهم علو كلمتنا ونصرة ديننا ، لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير ، وتوفيقا لسلوكها كما قال : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » وجاء فى الحديث: « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » ، وقال عمر بن عبد العزيز : إنما قصّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا فى العمل بما علمنا ، ولو عملنا ببعض ماعلمنا لأورثنا علما لاتقوم به أبداننا. وقال أبوسليمان الدارانى : ليس الجهاد فى الآية قتال الكفار فقط ، بل هو نصر الدين ، والرد على المبطلين ، وقمع

الظالمين ، وعُظْمه الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ومنه مجاهدة النفوس فى طاعة الله ، وهو الجهاد الأكبر .

ثم ذكر أن الله يعينهم بالنصرة والتوفيق .

(وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) أى وإن الله ذا الرحمة لمع من أحسن من خلقه ، فجاهد أهل الشرك مصدقا رسوله فيما جاء به من عند ربه بالمعونة والنصرة على من جاهد من أعدائه ، وبالمغفرة والثواب فى العقبى .

روى ابن أبى حاتم عن الشعبى قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، وليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك.

وقد انتهى بهذا تفسير السورة الكريمة ، ولله الحمد أولا وآخراً .

مشتملات هذه السورة الكريمة

(١) اختبار المؤمنين ليعلم صدقهم فى إيمانهم .

(٢) فى الجهاد فائدة للمجاهد ، والله غنىّ عن ذلك .

(٣) الحسنات يكفرن السيئات .

(٤) الأمر بالإحسان إلى الوالدين وبرهما مع عدم طاعتهما فى الإشراك بالله .

(٥) حال المنافق الذى يظهر الإيمان ولا يحتمل الأذى فى سبيل الله .

(٦) حال الكافرين الذين يضلون غيرهم ، ويقولون للمؤمنين : نحن نحمل خطاياكم إن كنتم ضالين .

(٧) قصص الأنبياء : كنوح وإبراهيم ولوط وشعيب وصالح وموسى وهرون ، وبيان ما آل إليه أمر الأنبياء من النصر ، وأمر أممهم من الهلاك بضروب مختلفة من العقاب .

(٨) حجاج المشركين بضرب الأمثال لهم مما فيه تقريعهم وتأنيبهم .

(٩) حجاج أهل الكتاب ، والنهى عن جدلهم بالفظاظة والغلظة .

(١٠) إثبات النبوة ببيان صدق معجزته صلى الله عليه وسلم .

(١١) ذكر بعض شبههم فى نبوته ، والرد على ذلك .

(١٢) استعجالهم بالعذاب تهكما .

(١٣) أمر المؤمنين بالفرار بدينهم من أرض يخافون فيها الفتنة .

(١٤) العاقبة الحسنى للذين يعملون الصالحات .

(١٥) اعترافهم بأن الخالق الرازق هو الله .

(١٦) بيان أن الدار الآخرة هى دار الحياة الحقة .

(١٧) امتنانه على قريش بسكناهم البيت الحرام ، ثم كفرانهم بهذه النعمة بإشراكهم به سواه .

سورة الروم

هى مكية إلا قوله تعالى : « وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » فمدنية ، وعدة آيها ستون ، نزلت بعد سورة الانشقاق.

ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(١) إن السورة السابقة قد بدئت بالجهاد وختمت به ، فافتتحت بأن الناس لم يخلقوا فى الأرض لينامو على مهاد الراحة ، بل خلقوا ليجاهدوا حتى يلاقوا ربهم ، وأنهم يلاقون شتى المصاعب من الأهل والأمم التى يكونون فيها ، وهذه السورة قد بدئت بما يتضمن نصرة المؤمنين ودفع شماتة أعدائهم المشركين ، وهم يجاهدون فى الله ولوجهه ، فكأن هذه متممة لما قبلها من هذه الجهة .

(٢) إن مافى هذه السورة من الحجج على التوحيد والنظر فى الآفاق والأنفس مفصل لما جاء منه مجملا فى السورة السالفة ، إذ قال فى السالفة : « فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ » الخ ، وهنا بيّن ذلك ، فقال : « أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ » الخ ، وقال : « اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » الخ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) .

شرح المفردات

الروم : أمة عظيمة من ولد روم بن عيص بن إسحق بن إبراهيم ، كذا قال النسّابون من العرب ، أدنى الأرض: أى أقربها من الروم ، والأقربية بالنظر إلى أهل مكة الذين يساق إليهم الحديث ، والبضع : ما بين الثلاث إلى العشر ، وقال : المبرد ما بين العقدين فى جميع الأعداد ، ظاهر الحياة الدنيا : هو ما يشاهدونه من زخارفها ولذاتها الموافقة لشهواتهم التى تستدعى انهما كهم فيها وعكوفهم عليها .

المعنى الجملى

روى أن فارس غزوا الروم ، فوافوهم بأذْرِعات وبُصْرى من أرض الشام ، فغلبوا عليهم ، و بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو بمكة ، فشق عليهم من قِبَل أن الفرس مجوس ، والروم أهل كتاب وفرح المشركون بمكة وشمتوا ، ولقوا أصحاب النبي وهم فرحون ، وقالوا : إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب ، و إنكم إن قاتلتمونا لنظهرنّ عليكم ، فأنزل الله هؤلاء الآيات ، فخرج أبو بكر رضى الله عنه إلى المشركين فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ولا يَقَرَّنّ الله أعينكم (لايسرنكم) فوالله لتظهرنّ الروم على فارس كما أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم فقام إليه أبىّ بن خلف ؛ فقال : كذبت ، فقال : أنت أكذب يا عدو الله ، اجعل بيننا أجلا أُناحِبك عليه (أراهنك) على عشر قلائص منى ، وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرِمْتَ ، و إن ظهرت فارس غرمتُ إلى ثلاث سنين ، فناحبه ، ثم جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال عليه السلام : زايده فى الخطر ومادّه فى الأجل ، فخرج أبو بكر ، فلقى أبيّا ، فقال : لعلك ندمت ، فقال : لا ، تعال أزايدك فى الخطر ، وأمادّك فى الأجل ، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين ، قال : قد فعلتُ ، فلما أراد أبو بكر الهجرة طلب منه أبىّ كفيلا بالخطر إن غُلِب ،

فكفل به ابنه عبد الرحمن ، فلما أراد أبىّ الخروج إلى أُحُد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلا ، ومات أبىّ من جُرح جرحه إياه النبى صلى الله عليه وسلم فى الموقعة وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة ، فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبىّ وجاء به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : تصدق به (وقد كان هذا قبل تحريم القِمار كما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى، لأن السورة مكية وتحريم الخمر والميسر بالمدينة) .

الإيضاح

(الٓمٓ) تقدم فى السورة قبلها ما فيه الكفاية من الكلام فى أمثال هذه الحروف فى أوائل السور ، وقد بينا هناك أنه ينطق بأسمائها فيقال (ألف . لام . ميم) .

(غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين) أى غلبت فارس الروم فى أقرب أرض الروم بالنسبة إلى بلاد العرب ، إذ الوقعة كانت بين الارْدُن وفلسطين ، والروم من بعد غلب فارس إياهم سيغلبون فارس فى بضع سنين ، وقد تحقق ذلك فغلبوهم بعد سبع من الوقعة الأولى .

ولا شك أن وقوعه على نحو ما قال الكتاب الكريم يعد من أكبر الدلائل على إعجازه ، وأنه كلام الله العليم بكل شىء لا كلام البشر .

(لله الأمر من قبل ومن بعد) أى لله الأمر من قبل غلب دولة الروم على فارس ومن بعدها ، فمن غلب فهو بأمر الله وقضائه وقدره كما قال : « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » فهو يقضى فى خلقه بما يشاء ويحكم بما يريد ، ويظهر من شاء منهم على من أحب إظهاره عليه .

(ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله) أى ويوم تغلب الروم فارس يفرح المؤمنون بنصر الله وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له ، وغيظ من شمتوا من كفار مكة ، وأنه سيكون فألا حسنا لغلبة المؤمنين على الكافرين .

ثم أكد قوله لله الأمر بقوله :

(ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) أى ينصر من يشاء أن ينصره على عدوه ويغلبه عليه على مقتضى السنن التى وضعها فى الخليقة ، وهو المنتقم ممن يستحقون الانتقام بالنصر عليهم ، الرحيم بعباده فلا يعاجلهم بالانتقام على ذنوبهم كما قال : «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » .

(وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى وعد الله وعدا بظهور الروم على فارس ، والله لا يخلف ما وعد ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لجهلهم بشئونه تعالى وعدم تفكرهم فى النواميس والسنن التى وضعها فى الكون ، فإنه قد جعل من تلك السنن أن وعده لا يخلف ، فإنه مبنى على مقدمات ووسائل هو يعلمها ، وقد رتب عليها تلك العدة التى وعدها ، وجعل قانون الغلب فى الأمم والأفراد مبنيا على الاستعداد النفسى والاستعداد الحربى ؛ فلا تغلب أمة أخرى إلا بما أعدت لها من وسائل الظفر بها ، وما كان لها من صفات تكفل لها هذا الظفر من أناة وصبر وتضحية بما تملك من عزيز لديها من مال أو نفس .

وهكذا حكم الفرد فهو لا ينجح فى الحياة إلا إذا كان معه أسلحة يغالب بها عوامل الأيام حتى يغلب عليها بجده وكده ، فهذه الأمور وأمثالها تحتاج إلى دقة نظر لا يدركها إلا ذوو البصائر .

(يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) كتدبير معايشهم، وإحسان مساكنهم، وتنمية متاجرهم ، وتصرفهم فى مزارعهم ، على النحو الذى يجعلها تزدهر وتفى بحاجة المجتمع .

(وهم عن الآخرة هم غافلون) أى وهم غافلون عن أن النفوس لها بقاء بعد الموت وأنها ستلبس ثوبا آخر فى حياة أخرى ، وستنال إذ ذاك جزاء ما قدمت من خير أو شر ، ولو لم تكن النفوس تتوقع هذه الحياة لكانت آلام الدنيا ومتاعبها لا تطاق

ولا تجد النفوس لاحتمالها سبيلا ، وهى ما قبلت تلك الآلام واحتملتها إلا لأنها توقن بسعادة أخرى وراء ما تقاسى من المتاعب فى هذه الحياة ، ولله در القائل :

ومن البلية أن ترى لك صاحبا فى صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة فى ماله وإذا يصاب بدينه لم يشعر

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَاخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) .

المعنى الجملى

لما أنكر المشركون الإله بإنكار وعده وأنكروا البعث كما قال وهم عن الآخرة هم غافلون — أردف هذا بأن الأدلة متظاهرة فى الأنفس والآفاق على وجوده وتفرده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه وأنها لم تخلق سدى ولا باطلا ، بل خلقت بالحق وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى هو يوم القيامة ، ثم أمرهم بالسير فى أقطار الأرض ليعلموا حال المكذبين من الأمم قبلهم ، وقد كانوا أشد منهم بأسا وقوة ، فكذبوا رسلهم فأهلكهم الله وصاروا كأمس الدابر والمثل الغابر ، وما كان ذلك إلا بظلمهم وفساد أنفسهم لا بظلم الله لهم .

الإيضاح

(أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ؟) أى أو لم يتفكر هؤلاء المكذبون بالبعث من قومك فى خلق الله إياهم وأنه خلقهم ولم يكونوا شيئا ، ثم صرّفهم أحوالا وتارات حتى صاروا رجالا ، فيعلموا أن الذى فعل ذلك قادر أن يعيدهم بعد فنائهم خلقا جديدا ، ثم يجازى المحسن منهم بإحسانه والمسىء بإساءته ، لايظلم أحدا منهم فيعاقبه بدون جُرم صدر منه ، ولا يحرم أحدا منهم جزاء عمله ، لأنه العدل الذى لايجور ، فهو ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالعدل و إقامة الحق إلى أجل مؤقت مسمى ، فإذا حل الأجل أفنى ذلك كله و بدل الأرض غير الأرض و برزوا للحساب جميعا .

ثم ذكر أن كثيرا من الناس غفلوا عن الآخرة وما فيها من حساب وجزاء فقال :

(و إن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) لأنهم لم يتفكروا فى أنفسهم ولو تفكروا فيها ودرسوا عجائبها لأيقنوا بلقاء ربهم وأن معادهم إليه بعد فنائهم .

ثم نبههم إلى صدق رسله فيما جاءوا به عنه بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحة من إهلاك من جحد نبوتهم ونجاة من صدقهم فقال :

(أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى أو لم يسر هؤلاء المكذبون بالله الغافلون عن الآخرة فى البلاد التى يسلكونها تجرًا ، فينظروا إلى آثار الله فيمن كان قبلهم من الأمم المكذبة ، كيف كان عاقبة أمرها فى تكذيبها رسلها ، وقد كانوا أشد منهم قوة وحرثوا الأرض وعمروها أكثر مما عمر هؤلاء ثم أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم رسله ، وما كان الله بظالم لهم بعقابه إياهم على تكذيبهم رسله وجحودهم آياته ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بمعصيتهم ربهم .

والخلاصة — إنه قد كان لكم فيمن قبلكم من الأمم معتبر ومزدجر ، فقد كانوا أكثر منكم أموالا وأولادا ومُكّنوا فى الدنيا تمكينا لم تبلغوا معشاره ، وعمروا فيها أعمارا طوالا واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ولما جاءتهم الرسل بالبينات كذبوهم وفرحوا بما أوتوا فأخذوا بذنوبهم ولم تغن عنهم أموالهم شيئا ولم تحل بينهم و بين بأس الله .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) أى ثم كان العذاب عاقبتهم ، أما فى الدنيا فلهم البوار والهلاك ، وأما فى الآخرة فالنار لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ، وما ذاك إلا لأن كذبوا بحجج الله وآياته وهم أنبياؤه ورسله ، وسخروا منهم عنتا وكبرا .

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ(١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) .

شرح المفردات

يبلس المجرمون : أى يسكتون وتنقطع حجتهم ، الروضة : الأرض ذات النبات والماء ؛ ويقال أراض الوادى واستراض : إذا كثر ماؤه ، وأراض القوم : أرواهم بعض لرى ، يحبرون : يسرون ، يقال حبره يحبره (بالضم) حبرا وحبورا : إذا سره سرورا تهلل له

وجهه وظهر فيه أثره ، وفى المثل : امتلأت بيوتهم حِبَرة ، فهم ينتظرون العِبْرة ، محضرون : أى مدخلون فيه لايغيبون عنه .

المعنى الجملى

بعد أن بين أن عاقبة المجرمين النار وكان ذلك يستلزم الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة ، بل أقام عليه الدليل بأن أبان أن من خلق الخلق بقدرته و إرادته لايعجز عن رجعته ، ثم بين ما يكون حين الرجوع من إفلاس المجرمين وتحقق يأسهم وحيرتهم ، إذ لاتنفعهم شركاؤهم ، بل هم يكفرون بهم ، ثم ذكر أن الناس حينئذ فريقان : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، فالأولون يتمتعون بسرور وحبور ، والآخرون يَصْلَوْن النار دأبا لايغيبون عنها أبدا .

الإيضاح

(الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون) أى الله ينشئ جميع الخلق بقدرته وهو منفرد بإنشائه من غير شريك ولا ظهير ، ثم يعيده خلقا جديدا بعد إفنائه و إعدامه كما بدأه خلقا سويا ولم يك شيئا ، ثم إليه يردون فيحشرون لفصل القضاء بينهم ، فيجزى الذين أساءوا بما عملوا و يجزى الذين أحسنوا الحسنى .

ثم بين ما سيحدث فى هذا اليوم من الأهوال للأشقياء والنعيم والحبور للسعداء ، فقال :

(و يوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) أى ويوم تجىء الساعة التى فيها يفصل الله بين خلقه بعد نشرهم من قبورهم وحشرهم إلى موقف الحساب ـ يسكت الذين أشركوا بالله واجترحوا فى الدنيا مساوى الأعمال ، إذ لايجدون حجة يدفعون بها عن أنفسهم ما يحل بهم من النكال والوبال .

ولما كان الساكت قد يغنيه غيره عن الكلام نفى ذلك بقوله :

(ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) أى ولم يكن لهؤلاء المجرمين من شركائهم الذين كانوا يتبعونهم على ما دعوهم إليه من الضلالة ــ شفعاء يستنقذونهم من عذاب الله ، وإذ ذاك يستبين لهم جهلهم وخطؤهم إذ قالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

ولما ذكر سبحانه حال الشفعاء معهم ذكر حالهم مع الشفعاء بقوله :

(وكانوا بشركائهم كافرين) أى وجحدوا ولاية الشركاء وتبرءوا منهم كما جاء فى آية أخرى « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا » .

ثم بين بعدئذ أن الله يميز الخبيثين من الطيبين فقال :

(ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) أى ويوم تجىء الساعة التى يحشر فيها الخلق إلى الله يومئذ يتفرق أهل الإيمان بالله وأهل الكفر به ؛ فأما أهل الإيمان به فيؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، وأما أهل الكفر فيؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، قال قتادة : فرقة والله لا اجتماع بعدها .

ثم بين كيف يكون كل من الفريقين فقال :

(فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) أى فأما الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بما أمرهم الله به وانتهوا عما نهاهم عنه ، فهم فى رياض الجنات يمرحون وبألوان الزّهَر والسندس الأخضر يتمتعون ، ويتلذذون بالسماع والعيش الطيب الهنى .

(وأما الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون) أى وأما الذين جحدوا توحيد الله وكذبوا رسله وأنكروا البعث بعد الممات والنشور للدار الآخرة فأولئك فى عذاب الله مُحضرون لا يغيبون عنه أبدا .

فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩).

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حالى الفريقين المؤمنين الذين يعملون الصالحات، والكافرين المكذبين بالآيات، وما أعد لكل منهما من الثواب والعقاب ـ أرشد إلى ما يفضى إلى الحال الأولى وينجى من الثانية، وهو تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق به، وحمده، والثناء عليه بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال.

ولما كان الإنسان حين الإصباح يخرج من حال النوم التى هى أشبه بالموت منها إلى اليقظة وكأنها حياة بعد موت ـ أتبع ذلك بذكر الموت والحياة حقيقة.

الإيضاح

(فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) أى نزهوا الله سبحانه فى وقت المساء حين إقبال الليل وظلامه، وحين الصباح حين إسفار النهار بضيائه.

(وله الحمد فى السموات والأرض) أى والله هو المحمود من جميع خلقه فى السموات من سكانها من الملائكة، وفى الأرض من أهلها من أصناف خلقه فيها.

(وعشيا وحين تظهرون) أى ونزهوه وقت العشى حين اشتداد الظلام، ووقت الظهيرة حين اشتداد الضياء كما قال: «وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا. وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا»، وقال: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى».

وتخصيص هذه الأوقات من بين سائرها لما فيها من التبدل الظاهر فى أجزاء الزمن ، والانتقال من حال إلى أخرى على صورة واضحة ، كالانتقال من الضياء إلى الظلام فى المساء ، ومن الظلام إلى النور فى الإصباح ، ومن ضياء تام وقت الظهيرة إلى اضمحلال لذلك الضياء وقت العشى ، وهكذا .

ثم بين صفات ذلك الإله المستحق للثناء والتقديس ، فقال :

(١) (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) فهو القادر على خلق الأشياء المتقابلة بعضها من بعض ، فيخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة ، كما يفعل ضد هذا ، فيخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطائر ، وفى هذا دلالة على كمال قدرته ، وبديع صنعه ، وكون البيضة والنطفة كائن حى لاتعرفه العرب ولا تعترف به .

(٢) (ويحيي الأرض بعد موتها) أى ويحيي الأرض بالمطر ، فتخرج النبات الغض بعد أن كانت صعيداً جرزا .

ونحو الآية قوله : « وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ » وقوله : « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » .

(٣) (وكذلك تخرجون) أى وكما سهل حركة النائم الساكن بالانتباه ، وإنماء الأرض بإنباتها بعد موتها — يسهل عليه إحياء الميت وإخراجه من قبره لفصل القضاء .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بتنزيهه عن الأسواء والنقائص التى لا تليق بجلاله وكماله ، ثم ذكر أن الحمد له على خلقه جميع الموجودات ، وبين قدرته على الإماتة والإحياء بقوله : (وكذلك تخرجون) ، ذكر هنا أدلة باهرة ، وحججا ظاهرة على البعث والإعادة ، ومنها : خلقكم من التراب الذى لم يشمّ رائحة الحياة ، ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم ، ثم إبقاء نوعكم بالتوالد ، فإذا مات الأب قام ابنه مقامه ، لتبقى سلسلة الحياة متصلة بهذا النوع وبسائر الأنواع الأخرى بالازدواج والتوالد إلى الأجل الذى قدره الله لأمد هذه الحياة .

الإيضاح

(ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) أى ومن حججه الدالة على أنه القادر على ما يشاء من إنشاء وإفناء ، وإيجاد وإعدام : أن خلقكم من تراب بتغذيتكم إما بلحوم الحيوان وألبانها وأسمانها ، وإما من النّبات ؛ والحيوان غذاؤه النبات ، والنبات من التراب ، فإن النواة لا تصير شجرة إلا بالتراب الذى ينضم إليه أجزاء مائية تجعلها صالحة للتغذية ، ثم بعد إخراجكم منه إذا أنتم بشر تنتشرون فى الأرض ، تتصرفون فيها فى أغراضكم المختلفة ، وأسفاركم البعيدة تكدحون وتجدّون لتحصيل أرزاقكم من فيض ربكم وواسع نعمه عليكم .

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) أى ومن آياته الدالة على البعث والإعادة : أن خلق لكم أزواجا من جنسكم لتأنسوا بها ، وجعل بينكم المودة والرحمة لتدوم الحياة المنزلية على أتم نظام .

ونحو الآية قوله : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى إن فيما سلف من خلقكم من تراب وخلق أزواجكم من أنفسكم ، و إبقاء المودة والرحمة ـ لعبرة لمن تأمل فى تضاعيف تلك الأفعال المبنية على الحكم والمصالح ، فهى لم تخلق عبثا ، بل خلقت لأغراض شتى تحتاج إلى الفكر حتى يصل إلى معرفتها ذوو الذكن والعقل الراجح .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل وجوده بما ذكره فى خلق الإنسان ـ أعقبه بذكر الدلائل فى الأكوان المشاهدة والعوالم المختلفة ، وفى اختلاف ألوان البشر ولغاتهم التى لا حصر لها ، مع كونهم من أب واحد وأصل واحد ، وفيما يشاهد من سباتهم العميق ليلا ، وحركتهم السريعة نهاراً فى السعى على الأرزاق ، والجد والكد فيها .

الإيضاح

(ومن آياته خلق السموات والأرض) أى ومن دلائل وجوده وآيات قدرته : خلقه السموات المزدانة بالكواكب والنجوم الثوابت والسيارة المرتفعة السموك الواسعة الأرجاء ، وخلق الأرض ذات الجبال والوديان ، والبحار والقفار ، والحيوان والأشجار.

(واختلاف ألسنتكم وألوانكم) أى واختلاف لغاتكم اختلافا لا حدّ له ، فمن عربية إلى فرنسية ، إلى إنجليزية ، إلى هندية ، إلى صينية ، إلى نحو ذلك مما لا يعلم حصره إلا خالق اللغات ، واختلاف أنواعكم وأشكالكم اختلافا به أمكن التمييز بين الأشخاص فى الأصوات والألوان ، وهذا مما لا غنى عنه فى منازع الحياة ومختلف

أغراضها ، فكثيرا ما تميز الأشخاص بالأصوات ، و بذا نعرف الصديق من العدو ، فنتخذ مايلزم من العُدَّة لكل منهما ، كما نميزها بلغاتها ، فنعرف من أى الأجناس هى .

(إن فى ذلك لآيات للعالمين) أى إن فيما ذكر لدلائل لائحة لأولى العلم الذين يفكرون فيما خلق الله ، فيعلمون أنه لم يخلق الخلق عبثا ، بل خلقه لحكمة بالغة فيها عبرة لمن تذكر .

(ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله) أى ومن علامات قدرته نومكم بالليل واستقراركم فيه ، حتى لاتكون حركة ولاحس ، وسعيكم للأرزاق نهاراً بمزاولة أسباب المعاش ووسائله .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى إن فى فعل الله ذلك لعبراً وأدلة لمن يسمعون مواعظه فيتعظون بها ، و يفهمون حججه عليهم ، على أن صانع ذلك لا يعجزه بعث العالم و إعادته .

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما يعرض للأنفس من الأوصاف ــ ذكر ما يعرض للأكوان والآفاق ونشاهده رأى العين الفَيْنَة بعد الفَيْنَة مما فيه العبرة لمن ادّكر ، ونظر فى العوالم نظرة متأمل معتبر فى بدائع الأكوان ليتوصل إلى معرفة مدبرها وخالقها الذى أحسن كل شىء خلقه ثم هدى .

الإيضاح

(ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها) أى ومن آياته الدالة على عظيم قدرته أنه يريكم البرق فتخافون مما فيه من الصواعق ، وتطمعون فيما يجلبه من المطر الذى ينزل من السماء ، فيحيي الأرض الميتة التى لازرع فيها ولا شجر .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى إن فى ذلك الذي سلف ذكره لبرهانا قاطعا ، ودليلا ساطعا ، على البعث والنشور ، وقيام الساعة ، فإن أرضا هامدة لانبات فيها ولاشجر يجيئها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج : لهى المثال الواضح ، والدليل اللائح ، على قدرة من أحياها على إحياء العالم بعد موته ، حين يقوم الناس لرب العالمين .

(ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) أى ومن الحجج الدالة على قدرته على ما يشاء قيام السماء والأرض بلا عَمَد ، بل بإقامته وتدبيره ؛ فالأرض تجرى ، والسحاب يجرى حولها ، والهواء تبع لها ، وهى والقمر والسيارات يجرين حول الشمس ، والشمس ولواحقها يجرين حول كواكب أخرى ، لانعلم عنها إلا هذه الآثار العلمية الضئيلة .

وقصارى ذلك : إن إمساك هذه العوالم وإقامتها وتدبيرها وإحكامها من الآيات التى ترشد إلى إله مدبر لها .

(ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) أى ولايزال الأمر هكذا حتى ينتهى أجل الدنيا ، ويختل نظام العالم ، فتبدل الأرض غير الأرض ، وتدك الجبال دكا ، وحينئذ تخرجون من قبوركم سراعا حينما يدعوكم الداعى .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » وقوله : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » وقوله : « إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً . فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ » .

وَلَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على الوحدانية وهى الأصل الأول ، وعلى القدرة على الحشر ، وهى الأصل الثانى ـ أعقب ذلك بهاتين الآيتين وجعلهما كالنتيجة لما سلف .

الإيضاح

(وله من فى السموات والأرض كلٌّ له قانتون) أى إن من فى السموات والأرض من خلق الله مطيع له فيما أراد به من حياة أو موت ، من سعادة أوشقاء ، من حركة أو سكون ، إلى أشباه ذلك ، و إن عصاه بقوله أو فعله فيما يكسبه باختياره و يؤثره على غيره .

ثم كرر ذكر البعث والإعادة مرة أخرى لشدة إنكارهم له فقال :

(وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أى وهو الذى يبدأ الخلق من غير أصل له فينشئه بعد أن لم يكن شيئا ، ثم يفنيه بعد ذلك ، ثم يعيده كما بدأه ، وذلك أسهل عليه على حسب ما يدور فى عقول المخاطبين من أن من فعل شيئا مرة كانت الإعادة أسهل عليه .

والخلاصة : إن الإعادة أسهل على الله من البدء بالنظر لما يفعله البشر مما يقدرون عليه ، فإن إعادة شىء من مادته الأولى أهون عليهم من إيجاده ابتداء ، والمراد بذلك التقريب لعقول الجهلة المنكرين للبعث ، و إلا فكل الممكنات بالنظر إلى قدرته سواء .

وقصارى ذلك : إنه أهون عليه بالإضافة إلى أعمالكم وبالقياس إلى أقداركم .

روى عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى « كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى ، فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته ، وأما شتمه إياى ، فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

(وله المثل الأعلى فى السموات والأرض) أى وله الوصف البديع فى السموات والأرض ، وهو أنه لا إله إلا هو ليس كمثله شىء تعالى عن الشبيه والنظير .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو العزيز الذى لا يغالَب ولا يُغلب ، الحكيم فى تدبير خلقه وتصريف شئونه فيما أراد على وفق الحكمة والسداد .

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩) .

شرح المفردات

من أنفسكم : أى منتزعا من أحوال أنفسكم التى هى أقرب الأمور إليكم وأعرفها عندكم ، ملكت أيمانكم : أى مماليككم وعبيدكم ، فيما رزقناكم : أى من العقار والمنقول ، فأنتم فيه سواء : أى تتصرفون فيه كتصرفكم ، تخافونهم : أى تخافون أن يستبدوا بالتصرف فيه ، كخيفتكم أنفسكم : أى كما يخاف الأحرار بعضهم من

بعض ، نفصل الآيات : أى نبينها بالتمثيل الكاشف للمعانى ، فمن يهدى من أضل الله ؟ : أى لا أحد يهديهم ، وما لهم من ناصرين : أى ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير .

المعنى الجملى

بعد أن بين القدرة على الإعادة بإقامة الأدلة عليها ، ثم ضرب لذلك مثلا ؛ أعقب ذلك بذكر المثل على الوحدانية بعد إقامة الدليل عليها .

الإيضاح

(ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ؟) أى بين الله تعالى إثبات وحدانيته بما يكشفها من ذلك المثل المنتزع من أحوال أنفسكم وأطوارها التى هى أقرب الأمور إليكم ، وبه يستبين مقدار ما أنتم فيه من الضلال بعبادة الأوثان والأصنام ؛ فتسرعون إلى الإقلاع عن عبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

هل أنتم أيها الأحرار تشركون معكم عبيدكم فى أموالكم ، فيساوونكم فى التصرف فيها ؟ لا ، لا يتصرفون فيها إلا بإذنكم خوفا من لائمة تلحقهم منكم ، كما يخاف بعضكم بعضا ، وإذا كنتم لا ترضون بذلك لأنفسكم وأنتم وهم عبيد الله ، فكيف ترضون لرب الأرباب أن تجعلوا عبيده شركاء له ؟ .

وهذا مثل ضربه الله للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجاعلين له شركاء ، وهم معترفون بأن شركاءه من الأصنام والأوثان عبيده وملكه ، إذ كانوا يقولون فى التلبية والدعاء ، حين أداء مناسك الحج : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

وخلاصة المثل : إن أحدكم يأنف أن يساويه عبيده فى التصرف فى أمواله ، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ؟ .

(كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) أى ومثل هذا التفصيل البديع بضرب الأمثال الكاشفة للمعانى المقربة لها إلى العقول ، إذ تنقل المعقول إلى المحسوس التى هى به ألصق ، ولإدراكه أقرب ـ نفصل حججنا وآياتنا لقوم يستعملون عقولهم فى تدبر الأمثال واستخراج مغازيها ومراميها للوصول إلى الأغراض التى لأجلها ضربت ، ولمثالها استعملت ، فيستبين الرشد من الغى والحق من الباطل ، ولأمر مّا كثرت الأمثال فى جلاء الحقائق ، وإيضاح ما أشكل منها على الناظرين .

ثم بين أن المشركين إنما عبدوا غيره سفها من أنفسهم وجهلا لا ببرهان قد لاح لهم فقال :

(بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم) أى ولكن الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بالله ، اتبعوا أهواءهم جهلا منهم لحق الله عليهم ، فأشركوا الآلهة والأوثان فى عبادته ، ولو قلّبوا وجوه الرأى واستعملوا الفكر والتدبر لربما ردهم ذلك إلى معرفة الحق ووصلوا إلى سبيل الرشد ، ولكن أنى لهم ذلك ؟

(فمن يهدى من أضل الله ؟) أى فمن يهدى من خلق الله فيه الضلال وجعله كاسبا له باختياره ، لسوء استعداده وميله بالفطرة إليه وعلم الله فيه ذلك ؟

(وما لهم من ناصرين) أى وليس لهم ناصر ينقذهم من بأس الله وشديد انتقامه إذا حل بهم ، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) .

شرح المفردات

أقم : من أقام العود وقوّمه إذا عدّله ؛ والمراد الإقبال على دين الإسلام والثبات عليه ، حنيفا : من الحنف وهو الميل فهو مائل من الضلالة إلى الاستقامة ، والفطرة : هى الحال التى خلق الله الناس عليها من القابلية للحق والتهيؤ لإدراكه ، وخلق الله : هو فطرته المذكورة أوّلا ، القيم : أى المستوى الذى لا عوج فيه ولا انحراف ، منيبين إليه : أى راجعين إليه بالتوبة وإخلاص العمل ، من قولهم : ناب نوبة ونوبا إذا رجع مرة بعد أخرى ، واتقوه : أى خافوه ، فرقوا دينهم : أى اختلفوا فيما يعبدونه على حسب اختلاف أهوائهم ، شيعا : أى فرقا تشايع كل فرقة إمامها الذى مهد لها دينها وقرره ووضع أصوله .

المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه البينات والأدلة على وحدانيته ، وأثبت الحشر وضرب لذلك المثل ، وسلى رسوله ووطن عزيمته على اليأس من إيمانهم ، لأن الله قد ختم على قلوبهم ، فلا مخلص لهم من ذلك ولا أحد ينقذهم مما هم فيه ، لا أنت ولا غيرك ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ـ أعقب ذلك بأمره بالاهتمام بنفسه وعدم المبالاة بأمرهم وإقامة وجهه لهذا الدين غير ملتفت عنه يمنة ولا يسرة ، فهو فطرة الله التى خلق العقول معترفة بها .

الإيضاح

(فأقم وجهك للدين حنيفا) أى فسدّد وجهك نحو الوجه الذى وجهك إليه ربك لطاعته ، وهو الدين القيم دين الفطرة ، ومِلْ عن الضلال إلى الهدى .

(فطرة الله التى فطر الناس عليها) أى الزموا خلقة الله التى خلق الناس عليها ، فقد جعلهم بفطرتهم جانحين للتوحيد وموقنين به ، لكونه موافقا لما يهدى إليه

العقل ويرشد إليه صحيح النظر كما ورد فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تُنْتَج البهيمة جمعاء » (مستوية لم يذهب من بدنها شىء) هل تحسون فيها من جدعاء » (مقطوعة الأذن أو الأنف) .

ثم علل وجوب الامتثال بقوله :

(لاتبديل لخلق الله) أى لاينبغى أن تبدّل فطرة الله أو تغير ، وهذا خبر فى معنى النهى كأنه قيل : لاتبدلوا دين الله بالشرك .

بيان هذا أن العقل الإنسانى كصحيفة بيضاء قابلة لنقش ما يراد أن يكتب فيها كالأرض تقبل كل ما يغرس فيها ، فهى تنبت حنظلا وفاكهة ، ودواء وسمًّا ، والنفس ترد عليها الديانات والمعارف فتقبلها ، والخير أغلب عليها من الشر ، كما أن أغلب نبات الأرض يصلح للرعى والقليل منه سمّ لاينتفع به ، ولا تغير بالآراء الفاسدة إلا بمعلم يعلمها ذلك كالأبوين اليهوديين أو النصرانيين ، ولو ترك الطفل وشأنه لعرف أن الإله واحد ولم يسقه عقله إلى غير ذلك ، فإن البهيمة لاتجدع إلا بمن يجدعها من الخارج ، هكذا صحيفة العقل لاتغير إلا بمؤثر خارجى يضلها بعد علم .

(ذلك الدين القيم) أى ذلك الذى أمرتكم به من التوحيد هو الدين الحق الذى لاعوج فيه ولا انحراف .

(ولكن أكثر الناس لايعلمون) ذلك لعدم تدبرهم فى البراهين الواضحة الدالة عليه ، ولو علموا ذلك حق العلم لاتبعوه وما صدوا الناس عن الاقتباس من نوره ، وما سدلوا الحجب التى تحجب عنهم ضياءه .

(منيبين إليه واتقوه) أى فأقم وجهك أيها الرسول أنت ومن اتبعك حنفاء لله منيبين إليه ، وخافوه ، وراقبوا أن تفرطوا فى طاعته وترتكبوا معصيته .

(وأقيموا الصلاة) أى وداوموا على إقامتها ، فهى عمود الدين ، وهى التى تذكّر المؤمن ربه ، وتجعله يناجيه فى اليوم خمس مرات ، وتحول بينه وبين الفحشاء

والمنكر ، لأنها تعوّد النفس الخضوع والإخبات إليه ، ومراقبته فى السر والعلن ، كما جاء فى الحديث : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(ولاتكونوا من المشركين) به غيره ، بل أخلصوا له العبادة ولا تريدوا بها سواه ، وحافظوا على امتثال أوامره واجتناب نواهيه .

ثم بين صفات هؤلاء المشركين بقوله :

(من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا) أى من المشركين الذين بدلوا دين الفطرة وغيّروه ، وكانوا فى ذلك فرقا مختلفة كلها جانبت الحق ، وركنت إلى الباطل ، كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان ، وسائر الأديان الباطلة .

والخلاصة : إن أهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على مذاهب ونحل باطلة ، كل منها تزعم أنها على شىء .

(كل حزب بما لديهم فرحون) أى كل طائفة من هؤلاء الذين فارقوا دينهم الحق ، وأحدثوا من البدع ما أحدثوا فرحون بما هم به مستمسكون ، ويحسبون أن الصواب لايعدوهم إلى غيرهم من النحل والمذاهب الأخرى .

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) .

المعنى الجملى

لما أرشد إلى التوحيد وأقام الأدلة عليه ، وضرب له المثل ؛ أعقبه بذكر حال للمشركين يعرفون بها ، وسيماء لاينكرونها ، وهى أنهم حين الشدّة يتضرعون إلى ربهم ، وينيبون إليه ، فإذا خلصوا منها رجعوا إلى شِنْشِنتهم الأولى ، وأشركوا به الأوثان والأصنام ، فليضلوا ماشاءوا ، فإن لهم يوما يرجعون فيه إلى ربهم ، فيحاسبهم على مااجترحوا من السيئات ، وليتهم اتبعوا ذلك عن دليل ، حتى يكون لهم شبه العذر فيما يفعلون ، بل هو الهوى المطاع ، والرأى المتبع ، ثم ذكر حال طائفة من المشركين دون سابقيهم ، وهم من تكون عبادتهم لله رهن إصابتهم من الدنيا ، فإن آتاهم ربهم منها رضوا ، وإذا منعوا منها سخطوا وقنطوا ، وقدكان عليهم أن يعلموا أن بسط النعمة وإقتارها بيد الله ، وقد جعل لذلك أسبابا متى سلكها فاعلها وصل إلى ما يريد ، وليس علينا إلا أن تطمئن نفوسنا إلى ما يكون ، فكله بقدر الله وقضائه ، وعلينا أن نستسلم له ونعمل ما طلب إلينا عمله من الأخذ فى الأسباب والجد فى العمل جهد الطاقة .

الإيضاح

(وإذا مس الناس ضرّ دعوا ربهم منيبين إليه) أى وإذا مس هؤلاء المشركين الذين يجعلون مع الله إلها آخر — ضر فأصابهم جدْب وقحط أخلصوا لربهم التوحيد وأفردوه بالتضرع إليه واستغاثوا به منيبين إليه تائبين إليه من شركهم وكفرهم .

(ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون) أى ثم إذا كشف ربهم عنهم ذلك الضر وفرجه عنهم ، وأصابهم برخاء وخصب وسعة ، إذا جماعة منهم يشركون به ، فيعبدون معه الآلهة والأوثان .

والخلاصة : إنهم حين الضرر يدعون الله وحده لاشريك له ، وإذا أسبغ عليهم

نعمه إذا فريق منهم يشركون به سواه ويعبدون معه غيره .

ثم أمرهم أمر تهديد كما يقول السيد لعبده متوعدا إذا رآه قد خالف أمره : اعصنى ما شئت .

(ليكفروا بما آتيناهم) أى فليجحدوا نعمى عليهم وإحسانى إليهم كيف شاءوا ، فإن لهم يوما نحاسبهم فيه ، يوم يؤخذون بالنواصى ، ويجرّون بالسلاسل والأغلال ، ويقال لهم : ذوقوا ما كنتم تعملون .

وهكذا الأمر بعده مسوق لمثل ذلك وهو :

(فتمتعوا) أى فتمتعوا بما آتيناكم من الرخاء ، وسعة النعمة فى الدنيا ، فما هي إلا أويقات قصيرة تمضى كلمح البصر .

ثم هددهم أشد التهديد بقوله :

(فسوف تعلمون) إذا وردتم على ما يصيبكم من شديد عذابى ، وعظيم عقابى على كفركم بى فى الدنيا .

روى عن بعض السلف أنه قال : والله لو توعدنى حارس درب لخفت فيه ، فكيف والمتوعد هو الله الذى يقول للشىء كن فيكون ؟

ثم أنكر على المشركين ما اختلقوه من عبادة غيره بلا دليل ، فقال :

(أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) أى أأنزلنا على هؤلاء الذين يشركون فى عبادتنا الآلهة والأوثان كتابا بتصديق ما يقولون ، ويرشد إلى حقيقة ما يدّعون .

وإجمال القصد : إنه لم يُنزّل بما يقولون كتابا ولا أرسل به رسولا ، وإنما هو شىء افتعلوه اتباعا لأهوائهم .

ثم ذكر طبيعة الإنسان وجبلّته إلا من عصمه الله فقال :

(وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم

يقنطون) أى إن الإنسان قد ركب الله فى طبيعته الفرح والبطر حين تصيبه النعمة ، كما حكى الله عنه: «لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ» ، و إذا أصابته شدة بجهله بسنن الحياة وعصيانه أوامر الدين قنط من رحمة الله وأيس منها ، فهو كما قيل :

كحمار السوء إن أعلفته رمح الناس و إن جاع نهق

« إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فإنهم راضون بما قسمه لهم ربهم من خير أو شر ، علما منهم أن الله حكيم ، لايفعل إلا ما فيه خير للعبد ، وفى الحديث الصحيح : « عجبا للمؤمن لايقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، و إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » .

ثم أنكر عليهم ما يلحقهم من اليأس والقنوط لدى الضراء ، فقال :

(أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر ؟) أى ألم يشاهدوا و يعلموا أن الأمرين من الله ، فما بالهم لم يشكروا فى السراء ، ويحتسبوا فى الضراء ، كما يفعل المؤمنون ، فإن من فطر هذا العالم لاينزل الشدة بعباده إلا لما يعود عليهم بالخير كالتأديب والتذكير والامتحان ، فهو كما يربى عباده بالرحمة يربيهم بالتعذيب ؛ فلو أنهم شكروه حين السراء وتضرعوا إليه فى الضراء لكان خيرا لهم .

والخلاصة : إنه يجب عليهم أن ينيبوا إليه فى الرخاء والشدة ، ولايعوقهم عن الإنابة إليه نعمة تبطرهم ، ولاشدة تحدث فى قلوبهم اليأس ، بل يكونون فى السراء والضراء منيبين إليه .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى ذلك البسط على من بسط له ، والقدْر على من قدر عليه لدلالة واضحة لمن صدّق بحجج الله إذا عاينها .

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ

اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَىْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) .

شرح المفردات

حقه : هو صلة الرحم والبر بالقريب ، والمسكين : هو المعدم الذى لامال له ، وابن السبيل : هو المسافر الذى احتاج إلى مال وعزّ عليه إحضاره من بلده ، ووسائل المواصلات الحديثة الآن تدفع مثل هذه الحاجة ، ربا : أى زيادة ، والمراد بها الهدية التى يتوقع بها مزيد مكافأة ، فلا يربو عند الله : أى فلا يبارك فيه ، والمراد بالزكاة الصدقة ، المضعفون : أى الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر — أردف ذلك ببيان أنه يحب الإحسان على ذوى القربى وذوى الحاجات من المساكين وأبناء السبيل ، فإن الله إذا بسط الرزق لم ينقصه الإنفاق ، وإذا قدَر لم يزده بالإمساك :

إذا جاءت الدنيا فَجُدْ بها على الناس طُرًّا إنها تتقلب
فلا الجود يفنيها إذا هى أقبلت ولا البخل يبقيها إذا هى تذهب

الإيضاح

(فَآتِ ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) أى أعط أيها الرسول ومن تبعك من المؤمنين : الأقارب الفقراء جزءا من مالك صلة للرحم وبراً بهم ، لأنهم أحق الناس بالشفقة ؛ ومن ثم حكى عن أبى حنيفة أنه استدل بهذه الآية على وجوب النفقة على كل ذى رحم محرم ذكرا كان أو أنثى إذا كان فقيراً عاجزاً عن الكسب .

وكذا المسكين الذى لا مال له إذا وقع فى ورطة الحاجة ، فيجب على من عنده مقدرةٌ دفعُ حاجته ، وسدّ عَوَزه .

ومثله المسافر البعيد عن ماله، الذى لا يستطيع إحضارشىء منه لانقطاع السبل به فيجب مساعدته بما يدفع خصاصته ، حتى يصل إلى مأمنه ، وسرعة طرق المواصلات الآن تدفع هذه الضرورة .

(ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون) أى ذلك الإعطاء لمن تقدم ذكرهم ، من فعل الخير الذى يتقبله الله ، ويرضى عن فاعليه ، ويعطيهم جزيل الثواب ، وأولئك قد ربحوا فى صفقتهم ، فأعْطَوْا مايفنى ، وحصلوا على ما يبقى من النعيم المقيم ، والخير العميم .

وإنما كان هذا العمل خيراً لما فيه من تكافل الأسرة الخاصة وتعاونها فى السراء والضراء، وتعاون الأسرة العامة ، وهى الأمة الإسلامية جمعاء ، كما جاء فى الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا » .

ولايخفى ما لذلك من أثر فى تولد المحبة والمودة ، وفى التكاتف لدفع عوادى الأيام ومحن الزمان .

(وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) أى ومن أهدى هدية يريد أن تردّ بأكثر منها ، فلا ثواب له عند الله ، وقد حرم الله ذلك على رسوله صلى الله عليه وسلم على الخصوص ، كما قال تعالى : « وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ » أى ولاتعط العطاء تريد أكثر منه .

روى عن ابن عباس أنه قال : الربا ربوان : ربا لايصح وهو ربا البيع ، وربا لابأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها وإضعافها ، ثم تلا هذه الآية .

وقال عكرمة : الربا ربوان : ربا حلال ، وربا حرام ؛ فأما الربا الحلال : فهو الذى يُهْدِى ، يَلتمس ما هو أفضل منه ؛ وعن الضحاك فى هذه الآية : هو الربا

الحلال الذى يُهْدِى ، ليثاب ما هو أفضل منه ، لاله ولاعليه ، ليس له أجر ، وليس عليه فيه إثم .

(وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) أى ومن أعطوا صدقة يبتغون بها وجه الله تعالى خالصا ، فأولئك من الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء ، كما قال تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ؟ » ، وجاء فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «وماتصدّق أحد بعِدْل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فُلُوّه أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحد (جبل) » .

ولما بين أنه لازيادة إلا فيما يزيده ولاخير إلا فيما يختاره أكد ذلك بقوله :

(الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم) أى الله الذى لاتصح العبادة إلا له ، ولاينبغى أن تكون لغيره ، هو الذى خلقكم ولم تكونوا شيئاً ، ثم رزقكم ما به تقوم شئونكم فى هذه الحياة ، ثم يقبض أرواحكم فى الدنيا ، ثم يحييكم يوم القيامة للبعث .

ثم وبخ هؤلاء المشركين الذين يعبدون الآلهة والأصنام ، التى لاتخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت بقوله :

(هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء ؟) أى هل من آلهتكم وأوثانكم الذين جعلتموهم شركاء لله فى العبادة من يخلق أو يرزق أو يُنْشِر الميت يوم القيامة ؟ .

وإجمال المعنى : إن شركاءكم لايفعلون شيئا من ذلك ، فكيف يُعبدون من دون الله ؟.

ثم برأ سبحانه نفسه عن هذه الفرية التى افتروها ، فقال :

(سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تنزه عن الشريك ، فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) .

شرح المفردات

البر : الفيافى والقفار ، ومواضع القبائل ، والبحر : المدن ، والعرب تسمى الأمصار بحاراً لسعتها ؛ كما قال سعد بن عُبادة فى عبد الله بن أبىّ بن سلول : ولقد أجمع أهل هذه البُحَيرة (المدينة) ليتوّجوه .

وقال ابن عباس : البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر ، والبحر ما كان على شط نهر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المشركين عبدوا مع الله سواه ، وأشركوا به غيره ، والشرك سبب الفساد ، كما يرشد إلى ذلك قوله : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » ـ أعقب ذلك ببيان أن الناس قد انتهكوا حرمات الله واجترحوا المعاصى ، وفشا بينهم الظلم والطمع ، وأكل القوى مال الضعيف ، فصب عليهم ربك سوط عذابه ، فكثرت الحروب وافتنّ الناس فى أدوات التدمير والإهلاك ، فمن غائصات فى البحار تهلك السفن الماخرة فيها ، إلى طائرات قاذفات للحمَم والمواد المحرقة ، إلى مدافع تحصد الناس حصدا ، إلى دبابات سميكة الدروع تهد المدن هدا ؛ وما الحرب القائمة

الآن إلا مثال الوحشية الإنسانية ، والمجازر البشرية التي سلط الله فيها العالم بعضه على بعض ، فارتكب المظالم ، واجترح المآثم ، والإنسان فى كل عصر هو الإنسان .

وكما أهلك الله الكافرين قبلهم بكفرهم وظلمهم ، يهلك الناس بشؤم معاصيهم وفسادهم ، فليجعلوا من سبقهم مثلا لهم ، ليتذكروا عقاب الله وشديد عذابه للمكذبين .

الإيضاح

(ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) أى ظهر الفساد فى العالم بالحروب والغارات ، والجيوش والطائرات ، والسفن الحربية والغواصات ، بما كسبت أيدى الناس من الظلم وكثرة المطامع ، وانتهاك الحرمات ، وعدم مراقبة الخلاق ، وطرح الأديان وراء ظهورهم ، ونسيان يوم الحساب ، وأطلقت النفوس من عقالها ، وعاثت فى الأرض فساداً ، إذ لا رقيب من وازع نفسى ، ولا حسيب من دين يدفع عاديتها ، ويمنع أذاها ، فأذاقهم الله جزاء بعض ما عملوا من المعاصى والآثام لعلهم يرجعون عن غيهم ، ويثوبون إلى رشدهم ، ويتذكرون أن هناك يوما يحاسب الناس فيه على أعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شرا فشر ، فيخيم العدل على المجتمع البشرى ، ويشفق القوى على الضعيف ، ويكون الناس سواسية فى المرافق العامة ، وحاج المجتمع بقدر الطاقة البشرية .

وبعد أن بين أن ظهور الفساد كان نتيجة أفعالهم أرشدهم إلى أن من كان قبلهم وكانت أفعالهم كأفعالهم ، فأصابهم بعذاب من عنده ، وصاروا مُثُلاً لمن جاء بعدهم ، عبرة لمن خلفهم ، قال :

(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك : سيروا فى البلاد فانظروا إلى مساكن الذين كفروا بالله من قبلكم وكذبوا رسله ، كيف أهلكناهم بعذاب منا ، وجعلناهم عبرة لمن بعدهم ؟.

ثم بين سبب ما حاق بهم من العذاب ، فقال :

(كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ) فما حل بهم من العذاب كان جزاء وفاقا لكفرهم بآيات ربهم ، وتكذيبهم رسله .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) .

شرح المفردات

لامرد له : أى لايقدر أحد أن يرده ، يصدعون: أى يتصدعون ويتفرقون ، كما قال متمم بن نويرة من قصيدة يرثى بها أخاه مالكا :

وكنا كندمانَىْ جَذِيمة حِقْبَةً   من الدهر حتى قيل لن نتصدعا [1]

فأصبحنا كأنى ومالكا   لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

يمهدون : من مهد فراشه إذا وطأه ، حتى لايصيبه ماينغص عليه مرقده من بعض ما يؤذيه ، وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها ، وتمهيد العذر بسطه وقبوله ، لايحب الكافرين : أى إنه يبغضهم ، وسيعاقبهم على ما فعلوا .

---

(١) وجذيمة : هوجذيمة الأبرش، وكان ملكا فى الحيرة ، ونديماه مالك وعقيل ، وبهما يضرب المثل فى طول المنادمة ، فقد نادماه أربعين سنة ما أعادا عليه حديثا كان قالاه من قبل .

المعنى الجملى

بعد أن نهى الكافر عن بقائه على حاله التى هو عليها خيفة أن يحل به سوء العذاب ـ أردف ذلك بأمر رسوله ومن تبعه بالثبات على ماهم عليه ، بعبادتهم الواحد الأحد ، قبل أن يأتى يوم الحساب ، الذى يتفرق فيه العباد ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، فمن كفر فعليه وبال كفره ، ومن عمل صالحا فقد أعد لنفسه مهاداً يستريح عليه بما قدم من صالح العمل ، وسينال من فضل ربه وثوابه ورضاه عنه ما لايخطر له ببال ، ولا يدور له فى حسبان .

والكافر سيلقى فى هذا اليوم العذاب والنكال ، لأن ربه يبغضه ويمقته جزاء ما دسى به نفسه من سىء العمل .

الإيضاح

(فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لامردّ له) أى فاسلك أيها الرسول الكريم الطريق الذى رسمه لك ربك بطاعته ، واتباع نهجه القويم ، الذى لاعوج فيه ولا أمْتَ ، من قبل أن يجىء ذلك اليوم الذى لارادّ له ، وهو يوم الحساب الذى كتب الله مجيئه وقدّره ، وما قدِّر لابد أن يكون .

ثم ذكر حال الناس يومئذ ، فقال :

(يومئذ يصدعون) أى يومئذ يتفرق الناس على حسب أعمالهم ، ففريق فى الجنة يؤتى ثمرة عمله ، وفريق يزْجى إلى النار بما اجترح من الآثام ، وبما ران على قلبه مما كسبت يداه .

ثم بين أن ما ناله كل منهما من الجزاء كان نتيجة حتمية لعمله فقال :

(من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون) أى من كفر بالله ودسّى نفسه بما عمل من السيئات ، واجترح من الآثام ، فعليه وحده أوزار جحوده

وكفره بنعم ربه ، ومن عمل الصالحات وأطاع الله فيما به أمر وعنه نهى ، فقد أعد لنفسه العُدّة ، ووطأ لنفسه الفراش حتى لايقضّ عليه مضجعه ، ويقع فى عذاب السعير .

ثم بين العلة فى تفرقهم ، فقال :

(ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) أى إنهم يتفرقون ليجازى المؤمنين بالحسنى من فضله ، فيكافئ الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما شاء الله من المنح والعطايا .

وذكر جزاء الكافرين بما يدل عليه قوله :

(إنه لايحب الكافرين) أى إنه يبغضهم ، وذلك يستدعى عقابهم ، ولايخفى ما فى ذلك من تهديد ووعيد .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) .

المعنى الجملى

لما ذكر أن الفساد ظهر بسبب الشرك والمعاصى نبههم إلى دلائل وحدانيته بما يشاهدونه أمامهم من إرسال الرياح بالأمطار ، وجرى الفلك حاملة لأنواع الثمار ، مما فيه غذاؤكم ، وقوت أنعامكم .

الإيضاح

(ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله) أى ومن الأدلة على وحدانيته ، والحجج القائمة على أنه رب كل شىء ، أن يرسل الرياح من حين إلى آخر مبشرات بالغيث الذى به تحيا

الأرض ويُنبت الثمر والزرع ، فتأكلون منه مالذ وطاب ، وتعيشون أنتم ودوابكم وأنعامكم فضلا من ربكم ، ولتجرى السفن ماخرة للبحار ، حاملة للأقوات وأنواع الثمار ، متنقلة من قطر إلى قطر ، فيؤتى بما فى أقصى المعمور من الشرق إلى أقصاه فى الغرب ، والعكس بالعكس ، فلا تُحتجَن الثمرات والأقوات فى أماكنها وتكون وقفاً على قوم بأعيانهم .

(ولعلكم تشكرون) أى وليعدكم لشكره كفاء ما أسدى إليكم من نعمه الوفيرة ، وخيراته العميمة ، التى لاتحصون قدرها ، كما قال : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا » .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) .

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه البراهين الساطعة الدالة على الوحدانية والبعث والنشور، ولم يرعو بها المشركون ، بل لجوا فى طغيانهم يعمهون ، سلى رسوله صلى الله عليه وسلم فذكر له أنك لست أول من كُذِّبَ ، فكثير ممن قبلك جاءوا أقوامهم بالبينات ، فلم تغنهم الآيات والنذر ، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، ونصرنا رسلنا ومن آمن بهم ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون ، ولنجرينّ عليك وعلى قومك سنننا ، ولننتقمنّ منهم ، ولننصرنّك عليهم ، فالعاقبة للمتقين .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين) أى ولقد أرسلنا أيها الرسول رسلا من قبلك

إلى أقوامهم الكافرين ، كما أرسلناك إلى قومك عابدى الأوثان من دون الله ، فجاءوهم بالحجج الواضحة على أنهم من عند الله ، فكذبوهم كما كذبك قومك ، وردوا عليهم ما جاءوهم به من عنده ، كما ردوا عليك ما جئتهم به ، فانتقمنا من الذين اجترحوا الآثام ، واكتسبوا السيئات من أقوامهم ، ونجينا الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله ، ونحن فاعلو ذلك بمجرمى قومك ، وبمن آمن بك ، سنة الله التى شرعها لعباده ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وهذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه ، وهو صادق الوعد لايخلف الميعاد . أخرج الطبرانى وابن أبى حاتم وابن مردويه والترمذى عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مامن مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » ثم تلا : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعد والبشارة بالظفر على أعدائه ، والوعيد والنكال ، والخسران فى المآل ، لمن كذب به من قومه .

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) .

شرح المفردات

تثير : أى تحرك ، يبسط : أى ينشر ، فى السماء : أى فى سمتها وجهتها ، كسفا : أى قطعا ، والودق : المطر ، خلاله : واحدها خَلل ، وهو الفرجة بين الشيئين ، لمبلسين : أى لآيسين .

المعنى الجملى

عود على بدء ، بعد أن سلى رسوله صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من أذى قومه ببيان أنه ليس ببدع فى الرسل ، فكائن من رسول قبله قد كذِّب ، ثم دالت الدولة على المكذبين ، ونصر الله رسوله والمؤمنين ، أعاد الكرة مرة أخرى ، فأتبع البرهان بالبرهان لإثبات الوحدانية ، وإمكان البعث والنشور بما يشاهد من الأدلة فى الآفاق مرشدة إلى قدرته ، وعظيم رحمته ، ثم بما يرى فى الأرض الموات من إحيائها بالمطر ، وهو دليل لأنهم يشاهدونه ، ولا يغيب عنهم الحين بعد الحين ، والفَيْنة بعد الفَيْنَة ، أفليس فى هذا معتبر لمن اعتبر وادّكر؟ .

الإيضاح

(الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون) أى الله الذى يرسل الرياح ، فتنشئ سحابا فينشره ويجمعه جهة السماء تارة سائراً ، وأخرى واقفا ، وحينا قطعا ، فترى المطر يخرج من وسطه ؛ فإذا أصاب به بعض عباده فرحوا به لحاجتهم إليه .

(وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) أى وقد كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر قانطين يائسين من نزوله ، فلما جاءهم على فاقة وحاجة وقع منهم موقعا عظيما .

والخلاصة : إنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ، ومن قبل ذلك أيضا إذ هم ترقبوه فى إبّانه فتأخر ، ثم مضت فترة فترقبوه فيها فتأخر ، ثم جاء بغتة بعد اليأس والقنوط ، و بعد أن كانت أرضهم هامدة أصبحت وقد اهتزت وربَت وأنبتت من كل زوج بهيج .

(فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها) أى فانظر أيها الرسول أثر الغيث الذى أصاب به ماأصاب من النبات والأشجار والثمار ، وفيه الدليل الكافى على عظيم القدرة وواسع الرحمة .

و إذ قد ثبتت قدرته على إحياء الميت من الأرض بالغيث ثبتت قدرته على إحياء الأجسام بعد موتها وتفرقها وتمزقها إرْبًا إرْبًا ، ومن ثم قال :

(إن ذلك لمحيي الموتى) أى إن ذلك الذى قدر على إحياء الأرض قادر على إحياء الأجسام من البعث .

ثم أكد هذا بقوله :

(وهو على كل شىء قدير) فلا يعجزه شىء ، فإحياؤكم من قبوركم هين عليه ، كما قال : « قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » .

ثم ذمهم على تزلزلهم وسوء اضطرابهم ، فإذا أصابهم الخير فرحوا به ، و إن أصابهم السوء يئسوا وأبلسوا ، وانقطع رجاؤهم من الخير ، فقال :

(ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون) أى ولئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة على الزرع الذى زرعوه ونما واستوى على سوقه ، فرأوه قد اصفر بعد خضرته ونضرته ـ لظلوا من بعد ذلك الاستبشار والرجاء يجحدون نعم الله السابقة عليهم .

ولايخفى مافى ذلك من المبالغة فى احتقارهم لتزلزلهم فى عقيدتهم ، إذ كان الواجب

عليهم أن يتوكلوا على الله فى كل حال ، ويلجئوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم المطر ، ولا ييأسوا من روح الله ، ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم جل وعلا برحمته ، وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه ، لكنهم قد عكسوا الأمر ، وأبوا مايجديهم ، وأتوا بما يؤذيهم .

فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه صنوف الأدلة ، ثم ضرب المثل على توحيده ووجوب إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، وصحة بعث الأجسام يوم القيامة، ووعد وأوعد بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد، ثم مازادهم دعاؤه إلا إعراضا ، ولا تكرار النصح إلا إصراراً وعناداً ـ أردف هذا بتسليته عما يراه من التمادى فى الإعراض ، وكثرة العناد واللجاج ، فأبان أن هؤلاء كأنهم موتى ، فأنَّى لك أن تسمعهم ، وكأنهم صم ، فكيف يسمعون دعاءك حتى يستجيبوا لك ؟ إنما الذى يستجيب من يؤمن بآيات الله ، فإذا سمع كتابه تدبره وفهمه ، فيخضع لك بطاعته ويتذلل لمواعظ كتابه .

الإيضاح

(فإنك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء إذا ولَّوا مدبرين) أى إنك لاتقدر أن تفْهم هؤلاء المشركين الذين قد ختم الله على أسماعهم ، فسلبهم فهم مايتلى عليهم من مواعظ تنزيله ؛ كما لاتقدر أن تفهم الموتى الذين سلبهم الله أسماعهم بأن تجعل لهم

أسماعا ، ولاتقدر أن توفق هؤلاء الذين قد سلبهم الله فهم آيات كتابه لسماعها وفهمها ، كما لاتقدر أن تسمع الصم الذين قدسلبوا السمع ـ الدعاء إذا ولوا عنك مدبرين .

ثم بين أن الهداية والضلالة بيد الله لابيد الرسول ، فقال :

(وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم) أى ليس فى طوقك أن تهدى من أضله الله ، فترده عن ضلالته ، بل ذلك إليه وحده ، فإنه يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه .

والخلاصة : إن هذا ليس عملك ، وما بعثت لأجله .

ثم أكد ماسلف بقوله :

(إن تسمع إلامن يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) أى لاتسمع السماع الذى ينتفع به سامعه فيتبعه ، إلا من يؤمن بآياتنا ، لأنه هو الذى إذا سمع كتاب الله تدبره وفهمه ، وعمل بما فيه ، وانتهى إلى حدوده التى حدها فيه ، فهو مستسلم خاضع له ، مطيع لأوامره ، تارك لنواهيه .

اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل الآفاق على وحدانيته أردفها بدلائل الأنفس ، فذكر خلق الآدمى ، وأطواره المختلفة من ضعف إلى قوة ، ثم انتكاسه وتغيير حاله من قوة إلى ضعف ، ثم إلى شيخوخة وهرم .

الإيضاح

(الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) يقول سبحانه محتجا على المشركين المنكرين للبعث : إن الذى خلقكم من نطفة وماء مهين ، فأنشأكم بشرا سويا ، ثم جعل لكم قوة على التصرف من بعد ضعف الصغر والطفولة ، ثم أحدث لكم الضعف بالهرم والكبر ، بعد أن كنتم أقوياء فى شبابكم - قادر أن يعيدكم مرة أخرى بعد البلى ، و بعد أن تكونوا عظاما نخرة .

والخلاصة : إن تنقل الإنسان فى أطوار الخلق حالا بعد حال من ضعف إلى قوة ، ثم من قوة إلى ضعف - دليل على قدرة الخالق الفعّال لما يشاء ، الذى لايعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ولايعجزه أن يعيدكم كرة أخرى .

(يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) أى يخلق مايشاء من ضعف وقوة ، وشباب وشيب ؛ وهو العليم بتدبير خلقه ، القدير على مايشاء ، لايمتنع عليه شىء أراده ، وهو كما يفعل هذا قادر على أن يميت خلقه ويحييهم إذا شاء .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَالَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) .

شرح المفردات

الساعة الأولى : يوم القيامة ؛ سميت بذلك لأنها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا ، **ما لبثوا** : أى ماأقاموا بعد الموت ، **غير ساعة** : أى غير قطعة قليلة من الزمان ؛

يؤفكون : أي يصرفون عن الحق ، المعذرة : العذر ، يستعتبون : أي يطلب منهم إزالة عتب الله وغضبه عليهم بالتوبة والطاعة ، فإنه قد حق عليهم العذاب ، يقال : استعتبني فلان فأعتبته : أي استرضاني فأرضيته .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف بدء النشأة الأولى ، وذكر الإعادة والبعث ، وأقام عليه الأدلة في شتى السور ؛ وضرب له الأمثال ـ أردف ذلك بذكر أحوال البعث وما يجرى فيه من الأفعال والأقوال من الأشقياء والسعداء ليكون في ذلك عبرة لمن يذّكر .

الإيضاح

(ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) أي ويوم تجيء ساعة البعث فيبعث الله الخلق من قبورهم ، يقسم المجرمون الذين كانوا يكفرون بالله في الدنيا ويكتسبون فيها الآثام ، إنهم ما أقاموا في قبورهم إلا قليلا من الزمان ، وهذا استقلال منهم لمدة لبثهم في البرزخ على طولها ، وهم قد صُرِفوا في الآخرة عن معرفة مدة مكثهم في ذلك الحين .

(كذلك كانوا يؤفكون) أي كذبوا في قولهم ما لبثنا غير ساعة ، كما كانوا في الدنيا يحلفون على الكذب وهم يعلمون . والكلام مسوق للتعجب من اغترارهم بزينة الدنيا وزخرفها ، وتحقير ما يتمتعون به من مباهجها ولذاتها ، كي يقلعوا عن العناد ويرجعوا إلى سبل الرشاد ، وكأنه قيل : مثل ذلك الكذب العجيب كانوا يكذبون في الدنيا اغتراراً بما هو قصير الأمد من اللذات ؛ وزخارف الحياة .

ثم ذكر توبيخ المؤمنين لهم وتهكمهم بهم :

(وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث) أي وقال

الذين أوتوا العلم بكتاب الله والإيمان بالله لأولئك المنكرين : لقد لبثتم من يوم مماتكم إلى يوم البعث فى قبوركم .

وفى هذا رد عليهم وعلى ما حلفوا عليه ، واطلاع لهم على الحقيقة .

ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم :

(فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون) أى فهذا هو اليوم الذى أنكرتموه فى الدنيا ، وزعمتم أنكم لاتبعثون ، وكنتم لاتعتقدون أنه حق ، وأنه واقع لامحالة ، لتفريطكم فى النظر ، ومن ثم استعجلتم الاستهزاء به .

ولما كانت الأدلة متظاهرة على أن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ، ذكر أن المعاذير لاتجدى فى هذا اليوم ، ولا يجابون إلى ما طلبوا من الرجوع إلى الدنيا ، لإصلاح ما فسد من أعمالهم ، فقال :

(فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون) أى فى هذا اليوم لاتنفع هؤلاء المجرمين معاذيرهم عما فعلوا ، كقولهم : ماعلمنا أن هذا اليوم كائن ولا أنا نبعث فيه ، ولاهم يرجعون إلى الدنيا ليتوبوا ، لأن التوبة لاتقبل فى هذا اليوم ، لأنه وقت جزاء لاوقت عمل ، وقد حقت عليهم كلمة ربهم .

والخلاصة : إنهم لايعاتبون على سيئاتهم ، بل يعاقبون عليها .

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ » .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر من الأدلة على الوحدانية والبعث ما ذكر ، وأعاد وكرر ، بشتى البراهين ، وبديع الأمثال ـ أردف ذلك بأنه لم يبق بعد هذا زيادة لمستزيد ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أدّى واجبه ، وأن من طلب شيئا بعد ذلك فهو معاند مكابر ، فإن من كذب الدليل الواضح اللائح لايصعب عليه تكذيب غيره من الدلائل .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ويُنكر الفمّ طعم الماء من سقم

الإيضاح

(ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى ولقد أوضحنا لهم الحق وضربنا لهم الأمثال الدالة على وحدانية الله ، والبعث وصدق الرسول ، ليستبينوا الحق ويتبعوه ، لكنهم أعرضوا عن ذلك استكباراً وعنادا .

(ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون) أى وإن تأتهم بالآيات لايؤمنوا بها ، بل يعتقدون أنها سحر مفترى ، وما هى إلا أساطير الأولين .

ونحو هذا قوله : « إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ » .

(كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون) أى كذلك يختم الله على قلوب الذين لايعلمون حقيقة ماتأتيهم به من العبر والعظات ، والآيات البينات ، فلا يفقهون عن الله حججه ولايفهمون عنه مايتلى عليهم من آى كتابه ، لسوء استعدادهم ، ولما دسّوا به أنفسهم من سوء القول والفعل ، فهم فى طغيانهم يعمهون .

ثم ختم السورة بأمر الرسول بالصبر على أذاهم ، وعدم الالتفات إلى عنادهم ، فقال :

(فاصبر إن وعد الله حق) أى فاصبر أيها الرسول على ما ينالك من أذى

المشركين ، وبلغهم رسالة ربك ، فإن وعده الذى وعدك من النصر عليهم والظفر بهم ، وتمكينك وتمكين أصحابك وأتباعك فى الأرض - حق لاشك فيه ، وليكونن لامحالة .

(ولا يستخفنك الذين لايوقنون) أى ولا يحملنك الذين لايوقنون بالميعاد ولايصدقون بالبعث بعد الممات - على الخفة والقلق ، فيثبطوك عن أمر الله والقيام بما كلفك به من تبليغ رسالته .

وفى هذا إرشاد لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وتعليم له ، بأن يتلقى المكاره بصدر رحب ، وسعة حلم .

أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقى أن رجلا من الخوارج نادى عليا وهو فى صلاة الفجر فقال : « وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » فأجابه وهو فى الصلاة : « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » .

ولا عجب من صدور مثل هذا الجواب على البديهة من على كرم الله وجهه ، وهو مدينة العلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وأتباعه الكرام ، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

خلاصة ما احتوت عليه السورة الكريمة من الموضوعات

(١) إثبات النبوة بالإخبار بالغيب .

(٢) البراهين الدالة على الوحدانية .

(٣) الاعتبار بما حدث للمكذبين من قبلهم .

(٤) الأدلة التى فى الآفاق شاهدة على وحدانية الله وعظيم قدرته .

(٥) الأدلة على صحة البعث .

(٦) ضرب الأمثال على أن الشركاء لا يجدونهم فتيلا ولا قطميرا .

(٧) الأمر بعبادة الله وحده ، وهى الفطرة التى فطر الناس عليها .

(٨) النهى عن اتباع المشركين الذين فرقوا دينهم على حسب أهوائهم .

(٩) من طبيعة المشرك الإنابة إلى الله إذا مسه الضر ، والإشراك به حين الرخاء .

(١٠) من دأب الناس الفرح بالنعمة والقنوط حين الشدة . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

(١١) الأمر بالتصدق على ذوى القربى والمساكين وابن السبيل .

(١٢) الدلائل التى وضعها سبحانه فى الأنفس شاهدة على وحدانيته .

(١٣) للخير والشر فائدة تعود إلى المرء يوم تجزى كل نفس بما كسبت .

(١٤) فى النظر فى آثار المكذبين عبرة لمن اعتبر .

(١٥) تسلية الرسول فى عدم إيمان قومه بأنهم صم عمى لا يسمعون ولا يبصرون .

(١٦) بيان أن الكافرين يكذبون فى الآخرة كما كانوا يكذبون فى الدنيا .

(١٧) الإرشاد إلى أنّ الرسول قد بلغ الغاية فى الإعذار والإنذار ، وأن قومه قد بلغوا الغاية فى التكذيب والإنكار .

(١٨) أمره صلى الله عليه وسلم بإدامة التبليغ مهما لاقى من الأذى ، فإن العاقبة والنصر له ، والخذلان لمن كذب به .

سورة لقمان

هى مكية إلا الآيات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ فمدنية ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة قال له أحبار اليهود : بلغنا أنك تقول : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا » أعنيتنا أم قومك ؟ قال : كُلًّا عنيت ، فقالوا : إنك تعلم أننا أوتينا التوراة ، وفيها بيان كل شىء ، فقال عليه الصلاة والسلام ذلك فى علم الله قليل ، فأنزل الله هؤلاء الآيات .

وعدة آيها أربع وثلاثون ، نزلت بعد الصافات .

وسبب نزولها أن قريشا سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن قصة لقمان مع ابنه وعن برّه والديه ، فنزلت .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه تعالى قال فى السورة السالفة : « وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ » وأشار إلى ذلك فى مفتتح هذه السورة .

(٢) إنه قال فى آخر ما قبلها : « وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ » ، وقال فى هذه : « وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا » .

(٣) إنه قال فى السورة السابقة : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » ، وقال هنا : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » ، فى كلتيهما إفادة سهولة البعث .

(٤) إنه ذكر هناك قوله : « وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » ، وقال هنا : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ » فذكر فى كل من الآيتين قسما لم يذكره فى الآخر .

(٥) إنه ذكر فى السورة التى قبلها محاربة ملكين عظيمين لأجل الدنيا ، وذكر هنا قصة عبد مملوك زهد فيها ، وأوصى ابنه بالصبر والمسالمة ، وذلك يقتضى ترك المحاربة ، وبين الأمرين التقابل وشاسع البون كما لايخفى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) .

الإيضاح

(الم) تقدم تفسير هذا مرارا بإسهاب .

(تلك آيات الكتاب الحكيم) أى هذه آيات الكتاب الحكيم بياناً وتفصيلا .

(هدى ورحمة للمحسنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) أى هذه آيات الكتاب الهادى من الزيغ ، الشافى من الضلال لمن أحسنوا العمل ، واتبعوا الشريعة ، فأقاموا الصلاة على الوجه الأكمل ، الذى رسمه الدين فى أوقاتها ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، وأيقنوا بالجزاء فى الدار الآخرة ، ورغبوا إلى الله فى ثواب ذلك ؛ لم يراءوا به ، ولاأرادوا به جزاء ولاشكوراً .

ولما كان المتصفون بهذه الخلال هم الغاية فى الهداية والفلاح قال :

(أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) أى إن هؤلاء الذين ذكرت أوصافهم على نور من ربهم ، وأولئك الذين رجوا ماأملوا من ثوابه يوم القيامة ، وقد تقدم مزيد إيضاح لهذا أول سورة البقرة .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا

وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) .

شرح المفردات

المراد بلهو الحديث : الجوارى المغنيات، وكتب الأعاجم ، وقد اشتريت حقيقة. وقال ابن مسعود : لهو الحديث : الرجل يشترى جارية تغنيه ليلا ونهاراً ، وعن ابن عمر « أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى لهو الحديث: إنما ذلك شراء الرجل اللعب والباطل » ، وسبيل الله : هو دينه ، والهزوُ : السخرية ، مهين : أى تلحقهم به الإهانة ، وقراً : أى صمما يمنعهم من السماع .

المعنى الجملى

بعد أن بين حال السعداء الذين يهتدون بكتاب الله ، وينتفعون بسماعه ؛ وهم الذين قال الله فيهم : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » ـ أردف ذلك بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب .

روى عن ابن عباس أن الآية نزلت فى النضر بن الحرث اشترى قينة (مغنية) وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام ؛ إلا انطلق به إلى قينة ، فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه .

وروى عن مقاتل أنه كان يخرج تاجراً إلى فارس ، فيشترى كتب الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشاً ، ويقول لهم : إن محمداً يحدثكم حديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم

حديث رستم واسفِنْدِيار ، وأخبار الأكاسرة ، فيستملحون حديثه و يتركون سماع القرآن .

الإيضاح

(ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم و يتخذها هزواً) أى ومن الناس فريق يتخذ مايتلهى به عن الحديث النافع للإنسان فى دينه ، فيأتى بالخرافات والأساطير والمضاحيك ، وفضول الكلام ، كالنضر بن الحارث الذى كان يشترى الكتب ، و يحدّث بها الناس ، ور بما اشترى الفتيات ، وأمرهن بمعاشرة من أسلم ليحملهم على ترك الإسلام ، وما مقصده من ذلك إلا الإضلال ، والصد عن دين الله وقراءة كتابه ، وهو غير عالم بفضله ومكانته ، واتخاذ سبيل الله هزواً ولعبا .

وعن نافع قال « كنت أسير مع عبد الله بن عمر فى الطريق ، فسمع مزماراً ، فوضع أصبعيه فى أذنيه ، وعدل عن الطريق ، فلم يزل يقول : يا نافع أتسمع ؟ قلت : لا ، فأخرج أصبعيه من أذنيه ، وقال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع » وعن ابن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نغمة لهو ومزامير شيطان . وصوت عند مصيبةٍ خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان » .

والخلاصة : إن الغناء عند المشتهرين به الذى يحرك النفوس ، و يبعثها على اللهو والغزل والمجون ، بشعر يشبب فيه بذكر النساء ، ووصف محاسنهن ، وذكر الخمور والمحرمات ، فلا خلاف فى تحريمه ، أما ماسلم من ذلك ، فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح : كالعرس والعيد ، وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان فى حفر الخندق وحدْوِ أَنْجَشَةَ (عبد أسود يقود بنساء النبى صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع) فأما ما ابتدعه الصوفية من الإدمان على سماع المغانى بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعازف والأوتار فحرام، وأما طبل الحرب فلاحرج فيه ، لأنه يقيم النفوس ، و يرهب

العدو ، فقد ضرب بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة ، فهمَّ أبو بكر بالزجر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح » فكنّ يضربن ويقلن : نحن بنات النجار ، حبذا محمد من جار .

وقصارى ذلك: إن الطبل فى النكاح كالدف ، والآلات المشهِّرة به يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام ، مما لارفث فيه .

وسماع الغناء من المرأة التى ليست بمحرم لايجوز .

ثم بين عاقبة أمرهم ، فقال :

(أولئك لهم عذاب مهين) أى إنه كتب لهم العذاب والخزى يوم القيامة ، لأنهم لما أهانوا الحق باختيارهم الباطل — جوزوا بإهانتهم يوم الجزاء بعذاب يفضحهم ويخزيهم أمام الخلائق .

ثم أشار سبحانه إلى أن هذا قد استشرى فى نفسه ، فكلما ذكّرت بالخير ازدادت إباء ونفورا ، فقال :

(وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا) أى وإذا تتلى آيات الكتاب الكريم على هذا الذى اشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله — يعرض عن سماعها ويولى مستكبرا ، كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه ثقلا، فلا يصيخ لها ، ولا يأبه لتلقفها وتأملها .

ونحو الآية قوله : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى » .

ولما تسبب عن ذلك استحقاقه لما يزيل كبره وعظمته قال :

(فبشره بعذاب أليم) أى فبشر هذا المعرض وأوعده بالعذاب الذى يؤلمه ويقض مضجعه يوم القيامة .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩).

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال من أعرض عن الآيات وبيّن مآله ـ عطف على ذلك ذكر مآل مَن قَبِل تلك الآيات وأقبل على تلاوتها والانتفاع بها.

الإيضاح

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم. خالدين فيها) أي إن الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وعملوا الأعمال الصالحة فأتوا بما أمرهم به ربهم فى كتابه على لسان رسله، وانتهوا عما نهاهم عنه ـ لهم جنات ينعمون فيها بأنواع اللذات والمسارّ من المآكل والمشارب، والملابس والمراكب، مما لم يخطر لأحدهم ببال، وهم فيها مقيمون دائما لا يظعنون ولا يبغون عنها حولا.

(وعد الله حقا) أى ما أخبرنا به كائن لا محالة، لأنه وعد الله الذى لا يخلف وعده، وهو الكريم المنّان على عباده.

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو الشديد فى انتقامه من أهل الشرك به، الصادّين عن سبيله، الحكيم فى تدبير خلقه، فلا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة لهم.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١).

شرح المفردات

العمد : واحدها عماد ، وهو مايعمد به أي يسند به ، تقول : عمدتُ الحائط إذا دعمتَه ، رواسى : أي جبالا ثوابت ، تميد : أي تضطرب ، والبثّ : الإثارة والتفريق كما قال : « كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » والمراد الإيجاد والإظهار ، وزوج : أي صنف ، كريم : أي شريف كثير المنفعة .

المعنى الجملى

بعد أن أبان فيما سلف كمال قدرته وعلمه وإتقان عمله ـ أردف ذلك بالاستشهاد لما سلف ، مع تقرير وحدانيته ، وإبطال أمر الشرك ، وتبكيت أهله .

الإيضاح

(خلق السموات بغير عمد ترونها) أي ومن الأدلة على قدرته البالغة ، وحكمته الظاهرة أن خلق السموات السبع بغير عمد تستند إليه ، بل هي قائمة بقدرة الحكيم الفعال لما يشاء ، وقد تقدم تفصيل ذلك فى سورة الرعد .

(وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) أي وجعل على ظهر الأرض ثوابت الجبال ، لئلا تضطرب بكم ، وتميد بالمياه المحيطة بها ، الغامرة لأكثرها .

(وبث فيها من كل دابة) أي وذرأ فيها من أصناف الحيوان مالايعلم عددها ومقدار أشكالها وألوانها إلا الذى فطرها .

(وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) أي وأنزلنا من السماء مطرا فكان ذلك سببا لإنبات كل صنف كريم من النبات ذى المنافع الكثيرة .

وبعد أن نبه إلى أنه الخالق نبه إلى أنه الرازق بقوله :

(هذا خلق الله) أي هذا الذى تشاهدونه من السموات والأرض ومافيهما الخلق خلق الله وحده دون أن يكون له شريك فى ذلك .

ثم أنّب المشركين ووبخهم على شركهم به ، فقال :

(فأرونى ماذا خلق الذين من دونه؟) أي فأخبرونى أيها المشركون الذين تعبدون

هذه الأصنام والأوثان : أي شيء خلق الذين من دونه مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه في العبادة ، حتى استحقوا به العبودية ، كما استحق ذلك عليكم خالقكم وخالق هذه الأشياء التي عددتها لكم ؟ .

ثم انتقل من توبيخهم بما ذكر إلى تسجيل الضلال عليهم ، المستدعي للإعراض عنهم ، وعدم مخاطبتهم بالمعقول من القول لاستحالة أن يفهموا منه شيئا فيهتدوا إلى بطلان ما هم عليه ، فقال :

(بل الظالمون في ضلال مبين) أي بل المشركون بالله ، العابدون معه غيره ، في جهل وعمى واضح لا اشتباه فيه لمن تأمله ونظر فيه ، فأنَّى لهم أن يرعووا عن غيّ أو يهتدوا إلى رشد وحق ؟ .

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) .

شرح المفردات

لقمان كان نجاراً أسود من سودان مصر ذا مشافر آتاه الله الحكمة ، ومنعه النبوة. والحكمة: العقل والفطنة ، وقد نسب إليه من المقالات الحكيمة شيء كثير ، كقوله لابنه : أي بنيّ إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها ناس كثيرون ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى ، وحشوها الإيمان ، وشراعها التوكل على الله ، لعلك تنجو ، ولا أراك ناجيا .

وقوله : من كان له من نفسه واعظ ، كان له من الله حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه ، زاده الله بذلك عزاً ، والذل في طاعة الله ، أقرب من التعزز بالمعصية .

وقوله : يا بُنَيَّ لا تكن حلواً فتُبتلَعَ ولا مرًّا فتُلفَظَ .

وقوله : يابنى إذا أردت أن تواخى رجلا فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك عند غضبه فآخه ، وإلا فاحذره . والشكر : الثناء على الله تعالى ، وإصابة الحق ، وحب الخير للناس ، وتوجيه الأعضاء وجميع النعم لما خلقت له .

المعنى الجملى

بعد أن بين فساد اعتقاد المشركين بإشراك من لا يخلق شيئا بمن خلق كل شىء ، ثم بين أن المشرك ظالم ضالّ – أعقب ذلك ببيان أن نعمه الظاهرة فى السموات والأرض ، والباطنة: من العلم والحكمة ترشد إلى وحدانيته ، وقد آتاها لبعض عباده كلقمان الذى فطر عليها دون نبىّ يرشده ، ولا رسول بعث إليه .

الإيضاح

(ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله) أى ولقد أعطى سبحانه لقمان الحكمة ، وهى شكره وحمده على ما آتاه من فضله بالثناء عليه بما هو أهل له ، وحب الخير للناس ، وتوجيه الأعضاء إلى ما خلقت له .

(ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه) لأن الله يجزل له على شكره الثواب ، وينقذه من العذاب ، كما قال : « وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » .

(ومن كفر فإن الله غنىّ حميد) أى ومن كفر نعم الله عليه ، فإلى نفسه أساء ، لأن الله معاقبه على كفرانه إياها ، والله غنى عن شكره ، لأن شكره لا يزيد فى سلطانه ، وكفرانه لا ينقص من ملكه ، وهو المحمود على كل حال ، كفر العبد أو شكر .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ

وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) .

شرح المفردات

العظة : تذكير بالخير يرقّ له القلب ، والوهن : الضعف ، والفصال : الفطام ، جاهداك : أى حرصا على متابعتك لهما فى الكفر ، أناب : أى رجع ، المثقال : مايوزن به غيره ، ومثقال حبة الخردل مثل فى الصغر ، لطيف : أى يصل علمه إلى كل خفىّ ، خبير : أى عليم بكنه الأشياء وحقائقها ، من عزم الأمور : أى من الأمور المعزومة التى قطعها الله قطع إيجاب ، تصعير الخد : ميله وإبداء صفحة الوجه ، وهو من فعل المتكبرين ، قال أعرابى : وقد أقام الدهر صعرى بعد أن أقمت صعره ، وقال عمرو بن حُنَىّ التغلبى :

وكنا إذا الجبار صعّر خدّه أقمنا له من ميله فتقوّما

وفى الحديث : « يأتى على الناس زمان ليس فيهم إلا أصعر أوأبتر » والأصعر : المعرض بوجهه كبرا ، وفى الحديث : « كل صعّار ملعون » أى كل ذى أبهة وكبر هو كذلك . مرحا : أى فرحا و بطراً ، والمختال : هو الذى يفعل الخيلاء وهى التبختر فى المشى كبراً ، والفخور : من الفخر وهو المباهاة بالمال والجاه ونحو ذلك ، اقصد : أى توسط ،اغضض : أى انقص منه وأقصر، من قولهم: فلان يغض من فلان إذا قصر به ووضع منه، وحط من درجته ، أنكر الأصوات : أى أقبحها وأصعبها على السمع من نكر (بالضم) نكارة ، أى صعب .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن لقمان أوتى الحكمة ، فشكر ربه على نعمه المتظاهرة عليه ، وهو يرى آثارها فى الآفاق والأنفس آناء الليل وأطراف النهار ـ أردف ذلك ببيان أنه وعظ ابنه بذلك أيضا ، ثم استطرد فى أثناء هذه المواعظ إلى ذكر وصايا عامة وصى بها سبحانه الأولاد فى معاملة الوالدين رعاية لحقوقهم ، وردّا لما أسدوه من جميل النعم إليهم ، وهم لا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، على ألا يتعدى ذلك إلى حقوقه تعالى ، ثم رجع إلى ذكر بقية المواعظ التى يتعلق بعضها بحقوق الله ، و بعضها يرجع إلى معاملة الناس بعضهم مع بعض .

الإيضاح

(و إذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنىّ لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) أى واذكر أيها الرسول الكريم موعظة لقمان لابنه ، وهو أشفق الناس عليه ، وأحبهم لديه حين أمره أن يعبد الله وحده ، ونهاه عن الشرك ، و بيّن له أنه ظلم عظيم : أما كونه ظلما ، فلما فيه من وضع الشىء فى غير موضعه ، وأما أنه عظيم فلما فيه

من التسوية بين من لانعمة إلا منه ، وهو سبحانه ، ومن لانعمة لها ، وهى الأصنام والأوثان .

روى البخارى عن ابن مسعود قال : لما نزل قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه ليس بذلك . ألاتسمعون لقول لقمان : « يابنىّ لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » .

وبعد أن ذكر سبحانه ما أوصى به لقمان ابنه من شكر المنعم الأول الذى لم يشركه فى إيجاده أحد ، وذكر مافى الشرك من الشناعة أتبعه بوصيته للولد بالوالدين لكونهما السبب فى وجوده ، فقال :

(ووصينا الإنسان بوالديه) أى وأمرناه ببرهما وطاعتهما ، والقيام بحقوقهما ، وكثيرا ما يقرن القرآن بين طاعة الله وبر الوالدين كقوله : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » .

ثم ذكر منة الوالدة خاصة لما فيها من كبير المشقة ، فقال :

(حملته أمه وهنا على وهن) أى حملته وهى فى ضعف يتزايد بازدياد ثقل الحمل إلى حين الطلق ، ثم مدة النفاس .

ثم أردفها بذكر منة أخرى ، وهى الشفقة عليه وحسن كفالته حين لايملك لنفسه شيئا ، فقال :

(وفصاله فى عامين) أى وفطامه من الرضاعة بعد وضعه فى عامين تقاسى فيهما الأم فى رضاعه وشئونه فى تلك الحِقْبة جمَّ المصاعب والآلام التى لايقدر قدرها إلا العليم بها ، ومن لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . وقد وصى بالوالدين لكنه ذكر السبب فى جانب الأم فحسب ، لأن المشقة التى تلحقها أعظم ، فقد حملته فى بطنها ثقيلا ، ثم وضعته وربته ليلا ونهارا ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم لمن

سأله من أبرّ ؟ : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم قال بعد ذلك : ثم أباك .

ثم فسر هذه الوصية بقوله :

(أن اشكر لى ولوالديك) أى وعهدنا إليه أن اشكر لى على نعمى عليك ، ولوالديك لأنهما كانا السبب فى وجودك ، و إحسان تربيتك ، وملاقاتهما مالاقيا من المشقة حتى استحكمت قواك .

ثم علل الأمر بالشكر له محذراً إياه بقوله :

(إلىّ المصير) أى إلىّ الرجوع ، لا إلى غيرى ، فأجازيك على ماصدر منك مما يخالف أمرى ، وسائلك عما كان من شكرك لى على نعمى عليك ، وعلى ما كان من شكرك لوالديك و برّك بهما .

و بعد أن ذكر سبحانه وصيته بالوالدين وأكد حقهما ، ووجوب طاعتهما استثنى من ذلك حقوق الله ، فإنه لايجب طاعتهما فيما يغضبه ، فقال :

(و إن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما) أى و إن ألحف عليك والداك فى الطلب ، وشدّدا النكير عليك؛ بأن تشرك بى فى عبادتك معى غيرى مما لاتعلم أنه شريك لى ، فلا تطعهما فيما أمراك به ، و إن أدى الأمر إلى السيف فجاهدهما به .

روى أن هذه الآية نزلت فى سعد بن وقاص قال : « لما أسلمتُ حلفت أمى لاتأكل طعاما ولاتشرب شرابا ، فناشدتها أول يوم فأبت وصبرت ، فلما كان اليوم الثانى ناشدتها فأبت ، فلما كان اليوم الثالث ناشدتها فأبت ، فقلت : والله لو كانت لك مائة نفس لخرجت قبل أن أودع دينى هذا ، فلما رأت ذلك وعرفت أنى لست فاعلا أكلت » .

(وصاحبهما فى الدنيا معروفا) أى وصاحبهما فى أمور الدنيا صحبة يرتضيها الدين و يقتضيها الكرم والمروءة ، بإطعامهما وكسوتهما ، وعدم جفائهما وعيادتهما إذا مرضا، مواراتهما فى القبر إذا ماتا .

وقوله : (فى الدنيا) إشارة إلى تهوين أمر الصحبة ، لأنها فى أيام قلائل وشيكة الانقضاء ، فلا يصعب تحمل مشقتها ؛ ولما كان ذلك قد يجر إلى نوع وهن فى الدين ببعض محاباة فيه نفى ذلك بقوله :

(واتبع سبيل من أناب إلىّ) أى واسلك سبيل من تاب من شركه ورجع إلى الإسلام ، واتبع محمداً صلى الله عليه وسلم .

والخلاصة : واتبع سبيلى بالتوحيد والإخلاص والطاعة ، لاسبيلهما .

(ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم مصيركم إلىّ بعد مماتكم ، فأخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا من خير وشر ، ثم أجازيكم عليه ، المحسن منكم بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

ثم عاد إلى ذكر بقية وصايا لقمان لابنه بعد أن نهى فى مطلعها عن الشرك وأكده بالاعتراض الذى ذكره بقوله :

(يا بنىّ إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله) أى يابنى إن الفعلة من الإساءة والإحسان إن تك وزن حبة من خردل فتكن فى أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة أو فى أعلى مكان كالسموات أو فى أسفله كباطن الأرض ــ يحضرها الله يوم القيامة ، حين يضع الموازين القسط ، ويجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شرا فشر ، كما قال تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا » .

(إن الله لطيف خبير) أى إن الله لطيف يصل علمه إلى كل خفى ، خبير : يعلم ظواهر الأمور وخوافيها .

(يابنىّ أقم الصلاة) أى أدها كاملة على النحو المرضى ، لما فيها من رضا الرب بالإقبال عليه والإخبات إليه ، ولما فيها من النهى عن الفحشاء والمنكر ، وإذا تم ذلك صفت النفس وأنابت إلى بارئها فى السراء والضراء كما جاء فى الحديث : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » .

وبعد أن أمره بتكميل نفسه توفية لحق الله عليه عطف على ذلك تكميله لغيره ، فقال :

(وأمر بالمعروف) أي وأمر غيرك بتهذيب نفسه قدر استطاعتك ، تزكية لها ، وسعياً إلى الفلاح ، كما قال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

(وانه عن المنكر) أي وانه الناس عن معاصى الله ومحارمه التي توبق من اكتسبها ، وتلقى به فى عذاب السعير ، فى جهنم وبئس المصير .

(واصبر على ما أصابك) من أذى الناس فى ذات الله إذا أنت أمرتهم بالمعروف أو نهيتهم عن المنكر .

وقد بدأ هذه الوصية بالصلاة ، وختمها بالصبر ، لأنهما عماد الاستعانة إلى رضوان الله كما قال : « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ » .

ثم ذكر علة ذلك ، فقال :

(إن ذلك من عزم الأمور) أي إن ذلك الذى أوصيك به من الأمور التى جعلها الله حتما على عباده لامحيص منها ، لما لها من جزيل الفوائد ، وعظيم المنافع فى الدنيا والآخرة ، كما دلت على ذلك تجارب الحياة ، وأرشدت إليه نصوص الدين ،

وبعد أن أمره بأشياء حذره من أخرى ، فقال :

(١) (ولاتصعّر خدك للناس) أي ولاتعرض بوجهك عمن تكلمه تكبراً واحتقاراً له ، بل أقبل عليه بوجهك كله متهللا مستبشراً من غير كبر ولاعتوّ ، ومن هذا المعنى ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لاتباغضوا ولاتدابروا ولاتحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » .

(٢) (ولاتمش فى الأرض مرحا) أي ولاتمش فى الأرض مختالا متبختراً ، لأن تلك مشية الجبارين المتكبرين الذين يبغون فى الأرض ، ويظلمون الناس ، بل امش

هونا ، فإن ذلك يفضى إلى التواضع ، وبذا تصل إلى كل خير .

روى يحيى بن جابر الطائى عن غضيف بن الحرث قال : « جلست إلى عبد الله ابن عمرو بن العاصى ، فسمعته يقول: إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه ، فيقول : يا بن آدم ما غرك بى ؟ ألم تعلم أنى بيت الوحدة ؟ ألم تعلم أنى بيت الظلمة ؟ ألم تعلم أنى بيت الحق ؟ يا بن آدم ما غرك بى ؟ لقد كنت تمشى حولى فدّادا (ذا خيلاء وكبر) » .
وفى الحديث : « من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة » .

ثم ذكر علة هذا النهى بقوله :

(إن الله لا يحب كل مختال فخور) أى إن الله لا يحب المختال المعجَب بنفسه ، الفخور على غيره ، ونحو الآية ما سر من قوله : « وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا » .

(٣) (واقصد فى مشيك) أى امش مشيا مقتصدا ليس بالبطىء المتثبط ، ولا بالسريع المفرِط ، بل امش هونًا بلا تصنع ولا مراءاة للخلق بإظهار التواضع أو التكبر .

روى عن عائشة أنها نظرت إلى رجل كاد يموت تخافتاً ، فقالت : مالهذا ؟ فقيل : إنه من القُرّاء (الفقهاء العالمين بكتاب الله) قالت : كان عمر سيّدَ القراء ، وكان إذا مشى أسرع ، وإذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع .

ورأى عمر رجلا متماوتا ، فقال له : لا تُمِتْ علينا ديننا، أماتك الله . ورأى رجلا مطأطئاً رأسه ، فقال له : « ارفع رأسك ، فإن الإسلام ليس بمريض » .

(واغضض من صوتك) أى انقص منه وأقصر ، ولا ترفع صوتك حيث لا يكون إلى ذلك حاجة ، لأنه أوقر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وفهمه .

ثم علل النهى وبيّنه بقوله :

(إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) أى إن أبشع الأصوات وأقبحها برفعها فوق

الحاجة بلا داع هو صوت الحمير ، وغاية من يرفع صوته أنه يجعله شبيها بصوت الحمار فى علوه ورفعه ، وهو البغيض إلى الله .

وفى ذلك ما لا يخفى من الذم . وتهجين رفع الصوت ، والترغيب عنه ، ومن جعل الرافع صوته كأنه حمار مبالغة فى التنفير من عمله ، وهذا أدب من الله لعباده بترك الصياح فى وجوه الناس تهاونا بهم ، أو بترك الصياح جملة .

وقد كانت العرب تفخر بجهارة الصوت ، فمن كان منهم أشد صوتا كان أعز ، ومن كان أخفض كان أذل ، قال شاعرهم :

جهير الكلام جهير العطاس ... جهير الرواء جهير النَّعَم
ويعدو على الأين عدو الظليم ... ويعلو الرجال بخلق عَمَم (١)

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)؟

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على التوحيد ، وذكر أن لقمان فهمه بالحكمة دون أن يرسل إليه نبىّ ــ عاد إلى خطاب المشركين وتوبيخهم على إصرارهم على ما هم عليه من الشرك مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد لائحة للعيان ، يشاهدونها فى كل آن ، فى السموات والأرض ، وتسخيرهم لما فيها مما فيه مصالحهم فى المعاش والمعاد ، وإنعامه عليهم بالنعم المحسوسة والمعقولة ، المعروفة لهم وغير المعروفة ؛ ثم أبان أن كثيراً من الناس يجادلون

(١) الرواء بالضم : المنظر الحسن ، والنعم : الابل ، والأين : الاعياء ، والخلق العمم : التام .

فى توحيد الله وصفاته بدون دليل عقلى على ما يدّعون ، ولا رسول أرسل إليهم بما عنه يناضلون ، ولا كتاب أنزل إليهم يؤيد مايعتقدون ، و إذا هم أفحموا بالحجة والسلطان المبين ، لم يجدوا جوابا إلا تقليد الآباء والأجداد بنحو قولهم : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » وما ذاك إلا من نزغات الشيطان ، والشيطان لايدعو إلا إلى الضلال الموصل إلى النار ، و بئس القرار .

الإيضاح

(ألم تروا أن الله سخر لـكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة و باطنة) أى ألم تروا أيها الناس أن الله الذى سخر لـكم ما فى السموات من شمس وقمر ، ونجوم وسحاب، تستضيئون بها ليلا ونهاراً ، وتهتدون بها فى ظلمات البر والبحر ، وتنزل لـكم الأمطار لسقى الناس والحيوان والمزارع المختلفة ، وما فى الأرض من الدوابّ والأشجار ، والمياه والبحار ، والسفن والمعادن التى فى باطنها ، إلى نحو ذلك من المنافع التى جعلها لغذائكم وأقواتكم ؛ فتتمتعون ببعض ذلك ، وتنتفعون بجميع ذلك ، وأتمّ عليكم نعمه محسوسة وغير محسوسة .

والخلاصة : إنه تعالى نبه خلقه إلى ما أنعم به عليهم فى الدنيا والآخرة ؛ بأن سخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليهم من النعم الظاهرة والباطنة ، فأرسل الرسل وأنزل الـكتب وأزاح الشبه والعلل .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية : « الظاهرة : الإسلام وما حسن من خلقك ، والباطنة : ما ستر عليك من سيئ عملك » وقيل : الظاهرة الصحة وكمال الخلق ، والباطنة : المعرفة والعقل ؛ وقيل : الظاهرة : ما يرى بالأبصار من المـال والجاه والجمال ، وتوفيق الطاعات ، والباطنة :

ما يجده المرء فى نفسه من العلم بالله ، وحسن اليقين ، وما يدفع عن العبد من الآفات .

ثم ذكر أنه مع كل هذه الأدلة الظاهرة قد مارى بعض الناس دون برهان من عقل ولا مستند من نقل ، فقال :

(ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير) أى وهناك فريق من الناس يجادل ويخاصم فى توحيد الله وصفاته كالنضر بن الحرث وأبىّ بن خلف اللذين كانا يجادلان النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك بلا علم من عقل ولا مستند من حجة صحيحة ولا كتاب مأثور يؤيد صحة ما يدعون .

ثم بين أنه لامطمع فى إيمان مثل هؤلاء ، لأنهم قد بلغوا الغاية فى الغباوة ، واستسلموا للتقليد ، وتركوا الدليل وإن كان لائحا ظاهراً ، فقال :

(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) أى وإذا قيل لهؤلاء المجادلين الجاحدين لوحدانية الله : اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الشرائع ـ لم يجدوا ردا لذلك إلا قولهم : إنا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من دين ، فإنهم كانوا أهل حق ودين صحيح .

فوبخهم على تلك المقالة التى هى من حبائل الشيطان ووساوسه فقال :

(أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير؟) أى أيتبعونهم على كل حال دون نظر إلى دليل ؟ فربما كان اعتقادهم مبنيا على الهوى وترّهات الأباطيل ، سداه ولحمته ما زينه لهم الشيطان من وساوس لاتستند إلى حجة ولا برهان .

والخلاصة — أما كان لهم أن يفكروا ويتدبروا حتى يعلموا الحق من الباطل والصواب من الخطأ ، فإن الرجال بالحق وليس الحق بالرجال ؟

وفى هذا ما لايخفى من تسفيه عقولهم وتسخيف آرائهم ، وأنهم بلغوا الدرك الأسفل فى هدم العقل وعدم الركون إلى الدليل مهما استبانت غايته واستقامت محجته.

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) .

شرح المفردات

يسلم وجهه : أى يفوض أمره ، محسن : أى مطيع لله فى أمره ونهيه ، والمراد بالعروة الوثقى ؛ أوثق العرى وأمتنها ، وهو مثل : وأصله أن من يرقى فى جبل شاهق أو يتدلى منه يستمسك بحبل متين مأمون الانقطاع ، نضطرهم : أى نلزمهم ، وغليظ: أى ثقيل ثقل الأجرام الغلاظ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال المشرك المجادل فى الله بغير علم ــ أردف ذلك بذكر حال المستسلم المفوض أموره إلى الله ، وبيان عاقبته ومآله ، ثم سلى رسوله عما يلقاه من المشركين من العناد والكفران ببيان أنه قد بلغ رسالات ربه وتلك وظيفة الرسل ، وعلى الله الحساب والجزاء ، فهو يجازيهم بما يستحقون من العذاب الغليظ فى جهنم وبئس المصير .

الإيضاح

(ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى ومن يعبد الله وهو متذلل خاضع مع الإحسان فى العمل بفعل الطاعات ، وترك المعاصى والمنكرات ، فقد تعلق بأوثق الأسباب التى توصل إلى رضوان ربه ومحبته وحسن جزائه على ما قدم من عمل صالح .

ثم بين العلة فى أنه يلقى الجزاء الأوفى فقال :

(وإلى الله عاقبة الأمور) أى إن المصير إلى الله لا إلى غيره ، فلا يكونن لأحد إذ ذاك أمر ولا نهى ، ولا عقاب ولا ثواب ، فيجازى المتوكل عليه أحسن الجزاء ، ويعاقب المسىء أنكل العذاب .

ثم سلى رسوله عما يلقاه من أذى المشركين وعنادهم فقال :

(ومن كفر فلا يحزنك كفره) أى لاتحزن على كفرهم بالله وبما جئت به ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإن قدر الله نافذ فيهم .

ثم بين لرسوله أنه لايهملهم على أعمالهم بل هو مجازيهم عليها فقال :

(إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا) أى إن مصيرهم يوم القيامة إلينا فنخبرهم بما عملوا فى الدنيا من خبيث الأعمال حتى لا يكون هناك سبيل إلى الإنكار ثم نجازيهم على ذلك أشد الجزاء .

ثم بين أنه عادل فى الجزاء لسعة علمه وعظيم إحاطته بكل شىء فقال :

(إن الله عليم بذات الصدور) أى إنه تعالى يجازيهم بكل ما عملوا ، إذ لا تخفى عليه خافية .

ثم بين أن ما يتمتعون به فى الدنيا فهو عرض قليل وظل زائل لاينبغى لعاقل أن يقيم له وزنا بجانب العذاب الدائم فقال :

(نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) أى نمهلهم فى الدنيا زمنا قليلا يتمتعون فيه بزخارفها ثم نلجئهم على كره منهم إلى عذاب شاقّ على نفوسهم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ (٢٦) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على وحدانيته تعالى بخلق السموات بلا عمد و بإسباغ نعمه الظاهرة والباطنة عليهم - أردف ذلك ببيان أن المشركين معترفون بذلك غير جاحدين له ، وهـذا يستدعى أن يكون الحمد كله له وحده ، ومن يستحق الحمد هو الذى يستحق العبادة ؛ فأمرهم عجب يعلمون المقدمات ثم ينكرون النتيجة التى تستتبعها، فيعبدون من لا يستحق عبادة ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا من الأصنام والأوثان .

الإيضاح

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) أى ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله من قومك : من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن الله.

وفى هذا إيماء إلى أنه قد بلغ من الوضوح مبلغا لا يستطيعون معه الإنكار والجحود .

ولما استبان بذلك صدقه صلى الله عليه وسلم وكذبهم قال آمرا رسوله .

(قل الحمد لله) على إلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان ما هم عليه من إشراك غيره تعالى به فى العبادة التى لا يستحقها سوى الخالق المنعم على عباده .

ثم بين أنهم بلغوا الغاية فى الجهل فهم يعترفون بالشىء و يعملون نقيضه فقال :

(بل أكثرهم لا يعلمون) أى بل أكثر المشركين لا يعلمون من له الحمد وأين موضع الشكر ، فهم مع تكذيبك يعترفون بما يوجب تصديقك .

ولما أثبت لنفسه الإحاطة بأوصاف الكمال استدل على ذلك بقوله :

(لله ما فى السموات والأرض ، إن الله هو الغنى الحميد) أى له سبحانه كل ما فى السموات والأرض ملكا وخلقا وتصرفا وليس ذلك لأحد سواه ، فلا يستحق العبادة فيهما غيره ، وهو الغنى عن عبادة جميع خلقه لأنهم ملكه وهم المحتاجون إليه، المحمود على نعمه التى أنعمها عليهم .

وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أجرى الحكمة على لسان لقمان ، ثم قفى على ذلك ببيان أنه أسبغ نعمه على عباده ظاهرة وباطنة ، وأن له ما فى السموات وما فى الأرض — أردف ذلك ببيان أن تلك النعم وهذه المخلوقات لاحصر لها ولا يعلمها إلا خالقها كما قال : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا » .

ولما كانت تلك النعم التى لاحصر لها وربما ظن أنها مبعثرة لا قانون لها أو أنها لكثرتها يصعب عليه تدبيرها وتصريف شئونها كما يريد — دفع هذا بقوله : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) .

روى أنه لما نزل بمكة قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ » الآية ، وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا بلغنا أنك تقول : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » أتعنينا أم تعنى قومك ؟ قال : كلًّا عنيت ، قالوا ألست تتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شىء ، فقال صلى الله عليه وسلم هى فى علم الله قليل ، وقد أتاكم ما إن عملتم به انتفعتم ، قالوا كيف تزعم هذا وأنت

تقول : « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » فكيف يجتمع علم قليل وخير كثير ، فنزلت الآية : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) الخ .

الإيضاح

(ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) أى لو أن أفنان الأشجار وأغصانها بريت أقلاما وجعل البحر مدادا وأمدته سبعة أبحر والخلائق جميعا يكتبون بها كلمات الله الدالة على عظمته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفد ماء البحر ولم تنفد كلمات الله .

ونحو الآية قوله : « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » وإنما ذكرت السبعة الأبحر للدلالة على الكثرة ، لاقصد هذا العدد بعينه ، فقد تقدم أن قلنا آنفاً إن العرب تذكر السبعة ، والسبعين ، والسبعمائة ، وتريد بذلك الكثرة كما جاء فى الحديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » وفى الآية : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ » .

وقصارى ذلك : إنه أخبر أن عظمته وكبرياءه وجلاله وأسماءه الحسنى لايحيط بها أحد ، ولايصل البشر إلى معرفة كنهها وعدها كما ورد فى الحديث : « سبحانك لانحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

(إن الله عزيز حكيم) أى إن الله قد عزّ كل شىء وقهره ، فلا مانع لما أراد ولا معقب لحكمه ، وهو الحكيم فى خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله ، وشرعه وجميع شئونه .

ثم أبان أن هذا الخلق الذى لاحصر له محيط به علما ، ولايعجزه شىء فيه متى أراد ، فقال :

(ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) أى ما خلق جميع الناس ولابعثهم

يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كخلق نفس واحدة ، فالكل هين عليه كما قال : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » ، وقال : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » ، وقال : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » .

(إن الله سميع بصير) أى إن الله سميع لأقوال عباده ، بصير بأفعالهم .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)

شرح المفردات

يولج : أى يدخل ، والمراد أنه يضيف الليل إلى النهار ، والعكس بالعكس ، فيتفاوت بذلك حالة أحدهما زيادة ونقصانا ، تجرى : أى تسير سيرا سريعا ، بنعمة الله : أى بما تحمله من الطعام والمتاع ونحوهما ، غشيهم : أى غطاهم ، والظلل : واحدها ظلة ، وهى كما قال الراغب : السحابة تظل ، مقتصد : أى سالك للقصد أى للطريق المستقيم ، وهو التوحيد لايعدل عنه إلى غيره ، وما يجحد : أى ما ينكر ، وختار : من الختر ، وهو أشد الغدر ، قال عمرو بن معد يكرب :

فإنك لو رأيت أبا عمير ... ملأت يديك من غدر وختر

وقال الأعشى :

بالأبلق الفرد من تَيْماءَ مَنْزِلُهُ حصنٌ حصينٌ وجارٌ غير ختَّار

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه سخر للإنسان ما فى السموات وما فى الأرض ـ ذكر هنا بعض ما فيهما بقوله : يولج الليل فى النهار الخ ، و بعض ما فى السموات بقوله : وسخر الشمس والقمر ، و بعض ما فى الأرض بقوله : ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ، ثم ذكر أن الكل معترفون بتلك الآيات ، إلا أن البصير يدركها على الفور ، ومن فى بصيرته ضعف لايدركها إلا إذا وقع فى شدة ، وأحدق به الخطر ، فهو إذ ذاك يعترف أن كل شىء بإرادة الله .

الإيضاح

(ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل) أى ألم تشاهد أيها الناظر بعينيك أن الله يزيد مانقص من ساعات الليل فى ساعات النهار ، و يزيد مانقص من ساعات النهار فى ساعات الليل .

والخلاصة : إنه يأخذ من الليل فى النهار ، فيقصر ذاك و يطول هذا ، وذاك فى مدة الصيف ، إذ يطول النهار إلى الغاية ، ثم يبتدئ النهار فى النقصان ، و يطول الليل إلى الغاية فى مدة الشتاء .

(وسخر الشمس والقمر) لمصالح خلقه ومنافعهم .

(كل يجرى إلى أجل مسمى) أى كل منهما يجرى بأمره ، إلى وقت معلوم ، وأجل محدد ، إذا بلغه كوّرت الشمس والقمر .

(وأن الله بما تعملون خبير) أى وأن الله بأعمالكم من خير وشر خبير بها لاتخفى عليه خافية من أمرها ، وهو مجازيكم بها .

ثم بين الحكمة فى إظهار آياته للناس ، فقال :

(ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل) أى إنما يظهر آياته لكم لتستدلوا بها على أنه هو المستحق للعبادة ، وأن كل ما سواه هو الباطل الذى يضمحل و يفنى ، فهو الغنى عما سواه ، وكل شىء فقير إليه .

(وأن الله هو العلى الكبير) أى وأنه تعالى المرتفع على كل شىء ، والمتسلط على كل شىء ، فكل شىء خاضع له ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

وبعد أن ذكر الآيات السماوية الدالة على وحدانيته أشار إلى آية أرضية ، فقال :

(ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته) أى ألم تشاهد أيها الرسول السفنَ وهى تسير فى البحر حاملة للأقوات والمتاع ، من بلد إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر هو فى حاجة إليها لينتفع الناس بما على ظاهر الأرض مما ليس فى أيديهم .

وفى هذا دليل على عجيب قدرته التى ترشدكم إلى أنه الحق الذى أوجد ما ترون من الأحمال الثقيلة على وجه الماء الذى ترسب فيه الإبرة فما دونها .

ثم ذكر من يستفيد من النظر فى الآيات ، فقال :

(إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى إن فيما ذكر لدلائل واضحات لكل صبار فى الضراء ، شكور فى الرخاء . قال الشعبى : الصبر نصف الإيمان ، والشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله ، ألم تر إلى قوله : « إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » . وقوله : « وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ » . وقال عليه الصلاة والسلام : « الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر » .

ثم بين أن المشركين ينسون الله فى السراء و يلجئون إليه حين الضراء ، فقال :

(وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين) أى وإذا أحاطت بالمشركين الذين يدعون من دون الله الآلهة والأوثان ــ الأمواجُ العالية التى كالجبال ، وأحدق بهم الخطر من كل جانب حين يركبون السفن ــ فزعوا بالدعاء إلى الله مخلصين له الطاعة لا يشركون به شيئا ، ولا يدعون معه أحدا سواه ، ولا يستغيثون بغيره .

(فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) أى فلما نجوا من الأهوال التى كانوا فيها ، وخلصوا إلى البر ، فمنهم متوسط فى أقوله وأفعاله بين الخوف والرجاء ، موفّ بما عاهد عليه الله فى البحر ، ومنهم من غدر ونقض عهد الفطرة ، وكفر بأنعم الله عليه .

يٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللّٰهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

شرح المفردات

اتقوا ربكم : أى خافوا عقابه ، لايجزى : أى لايغنى ، والغرور : ماغرّ الإنسان من مال وجاه ، وشهوة وشيطان ، والساعة : يوم القيامة ، ما فى الأرحام : أى ما فى أرحام النساء من صفاته وأحواله كالذكورة والأنوثة ، والحياة والموت ، وغيرها من الأعراض .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل التوحيد على ضروب مختلفة ، وأشكال منوعة ــ أمر بتقوى الله على سبيل الموعظة والتذكير بيوم عظيم ، يوم يحكم الله بين عباده ، يوم لاتنفع فيه قرابة ، ولا تجدى فيه صلة رحم ، فلو أراد والد أن يفدى ابنه بنفسه لما قبل منه ذلك ، وهكذا الابن مع أبيه ، فلا تلهينكم الدنيا عن الدار الآخرة ، ولايغرنكم الشيطان

فيزينّ لكم بوساوسه المعاصى والآثام. ثم ختم السورة بذكر ما استأثر الله بعلمه، مما فى الكائنات، وهى الخمس التى اشتملت عليها الآية الكريمة، مما لم يؤت علمها ملَك مقرّب، ولا نبى مرسل.

الإيضاح

(يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) أى يأيها المشركون من قريش وغيرهم اتقوا الله وخافوا أن يحل بكم سخطه فى يوم لايغنى والد عن ولده، ولامولود هو مغنٍ عن والده شيئا، لأن الأمور كلها بيد من لايغالب، ومن لاتنفع عنده الشفاعة والوسائل التى تنفع فى الدنيا، بل لاتجدى عنده إلا وسيلة واحدة، هى العمل الصالح الذى قدمه المرء فى حياته الأولى.

ثم أكد ما سلف بقوله:

(إن وعد الله حق) أى واعلموا أن مجىء هذا اليوم حق، لأنه قد وعد الله به ولاخلف لوعده.

ثم حذرهم من شيئين، فقال:

(١) (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) أى فلا تخدعنكم زينة هذه الحياة ولذاتها، فتميلوا إليها وتدَعوا الاستعداد لما فيه خلاصكم من عقاب الله فى ذلك اليوم.

(٢) (ولايغرنكم بالله الغرور) أى ولايغرنكم الشيطان، فيحملنكم على المعاصى بتزيينها لكم، ثم إرجاء التوبة إلى ما بعد ذلك، ثم هو ينسينكم ذلك اليوم، فلا تتخذُنّ له زادا، ولا تعدُّنّه مُعادا.

ثم ذكر سبحانه خمسة أشياء لايعلمها إلاهو، فقال:

(١) (إن الله عنده علم الساعة) فلا يعلمها أحد سواه؛ لاملَك مقرب، ولانبى مرسل، كما قال: « لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ».

(٢) (وينزل الغيث) فى وقته المقدر له، ومكانه المعين فى علمه تعالى، والفلكيون وإن علموا الخسوف والكسوف، ونزول الأمطار بالأدلة الحسابية،

فليس ذلك غيبا ، بل بأمارات وأدلة تدخل فى مقدور الإنسان ، ولا سيما أن بعضها قد يكون أحيانا فى مرتبة الظن ، لا فى مرتبة اليقين .

(٣) (ويعلم ما فى الأرحام) أذكر هو أم أنثى ، أتامّ الخلق أم ناقصه ، أو نحو ذلك من الأحوال العارضة له .

(٤) (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا) من خير أو شر .

(٥) (وما تدرى نفس بأىّ أرض تموت) أى لا يدرى أحد أين مضجعه من الأرض ؟ أفى بحر أم فى برّ ، أم فى سهل ، أم فى جبل .

(إن الله عليم خبير) أى إن الله عليم بجميع الأشياء ، خبير ببواطنها كما هو خبير بظواهرها .

أخرج ابن المنذر عن عكرمة «أن رجلا يقال له : الوارث بن عمرو بن حارثة جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد متى قيام الساعة ؟ وقد أجدبت بلادنا ، فمتى تُخْصب ؟ وقد تركت امرأتى حبلى فما تلد ؟ وقد علمتُ ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا ؟ وقد علمتُ بأى أرض ولدت ، فبأى أرض أموت ؟ فنزلت الآية : إن الله عنده علم الساعة الخ » .

وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مفاتيح الغيب خمس : إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأىّ أرض تموت إن الله عليم خبير » . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

مجمل ما حوته السورة الكريمة من الموضوعات

(١) القرآن هداية ورحمة للمؤمنين .

(٢) قصص من ضل عن سبيل الله بغير علم ، واتخذ آيات الله هزوا .

(٣) وصف العالم العلوى ، والعالم السفلى ، وما فيهما من العجائب الدالة على وحدانية الله .

(٤) قصص لقمان وإيتاؤه الحكمة ، وشكره لربه على ذلك ، ثم نصائحه لابنه .

(٥) الأمر بطاعة الوالدين إلا فيما لايرضى الخالق .

(٦) النعى على المشركين فى ركونهم إلى التقليد إذا دعوا إلى النظر فى الكون وعبادة الخالق له .

(٧) لانجاة للإنسان إلا بالإخبات إلى الله وعمل الصالحات .

(٨) تسلية الرسول عن عدم إيمان المشركين .

(٩) تعجيب رسوله من المشركين بأنهم يقرون بأن الله هو الخالق لكل شىء ثم هم يعبدون معه غيره ممن هو مخلوق مثلهم .

(١٠) نعم الله ومخلوقاته لاحصر لها .

(١١) الأمر بالنظر إلى الكون وعجائبه لنسترشد بذلك إلى وحدانية الصانع لها .

(١٢) تحميق المشركين بأنهم فى الشدائد يدعون الله وحده ، وفى الرخاء يشركون معه سواه .

(١٣) الأمر بالخوف من عقاب الله يوم لايجزى والد عن ولده .

(١٤) مفاتيح الغيب الخمسة التى استأثر الله بعلمها .

(١٥) إحاطة علمه تعالى بجميع الكائنات ظاهرها وباطنها .

سورة السجدة

هى مكية إلا من آية ١٦ إلى آية عشرين فمدنية .

وعدة آيها ثلاثون ، نزلت بعد سورة (المؤمنين) .

ووجه اتصالها بما قبلها من وجوه :

(١) اشتمال كل منهما على دلائل الألوهية .

(٢) إنه ذكر فى السورة السالفة دلائل التوحيد ، وهو الأصل الأول ، ثم ذكر المعاد ، وهو الأصل الثانى ، وهنا ذكر الأصل الثالث ، وهو النبوة .

(٣) إن هذه السورة شرحت مفاتح الغيب التى ذكرت فى خاتمة ما قبلها ، فقوله : « ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ » شرح لقوله : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » وقوله : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ » شرح لقوله : « وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ » وقوله : « الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ » . تفصيل لقوله : «وَيَعْلَمُ مَافِى الْأَرْحَامِ » وقوله : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ » إيضاح لقوله : « وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا » وقوله : « أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ الخ » شرح لقوله « وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)

الإيضاح

(الم) تقدم الكلام فى مثل هذا من قبل فى معناه ، وكيفية النطق به .

(تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين) أى إن هذا القرآن الذى أنزل على محمد لاشك أنه من عند الله ، وليس بشعر ، ولاسجع كاهن ، ولاهو مما تخرصه محمد صلى الله عليه وسلم .

وفى هذا تكذيب لقولهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً » .

ثم فند تكذيبهم له ، وأكد أنه من لدن رب العالمين ، فقال :

(أم يقولون افتراه ، بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) أى بل هو الحق والصدق من عند ربك أنزله إليك لتنذر قومك بأس الله وسطوته أن تحل بهم على كفرهم به ، وإنه لم يأتهم نذير من قبلك ليبين لهم سبيل الرشاد ، وأن محمدا لم يختلقه كما يزعمون .

وفى هذا ردّ لقولهم : « إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ » .

اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ

سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (٩)

المعنى الجملى

بعد أن أثبت سبحانه صحة الرسالة ــ بيّن ما يجب على الرسول من الدعاء إلى توحيد الله ، وإقامة الأدلة على ذلك .

الإيضاح

(الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام) أى الله سبحانه هو الخالق للسموات والأرض وما بينهما فى ستة أطوار فى نظر الناظرين إليها ، وليس المراد اليوم المعروف ، لأنه قبل خلق السموات لم يكن ليل ولا نهار ، وقد تقدم تفصيل ذلك فى سورة الفرقان .

(ثم استوى على العرش) تقدم بيان هذا فى سورة يونس وهود وطه .

(مالكم من دونه من ولى ولا شفيع) أى ليس لكم أيها الناس من يلى أموركم وينصركم منه إن أراد بكم ضرا ، ولا يشفع لكم عنده إن هو عاقبكم على معصيتكم إياه .

والخلاصة : فإياه فاتخذوه وليّا ، وبه وبطاعته فاستعينوا على أموركم ، فإنه يمنعكم ممن أرادكم بسوء ، ولا يقدر أحد على دفع السوء عنكم ، إذا هو أراد وقوعه بكم ، لأنه لا يقهره قاهر ، ولا يغلبه غالب .

ثم أمرهم بالتذكر والتدبر فى الأدلة ، فقال :

(أفلا تتذكرون ؟) أى أفلا تعتبرون وتتفكرون أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه ، تعالى الله وتقدس أن يكون له نظير أو شريك ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

(يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) تدبير الأمر : النظر فى دابره وعاقبته ليجىء محمود المغبَّة ، وتدبير الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم عروجه إليه تمثيل لإظهار عظمته ، كما يُصْدِرُ الملك أوامره ، ثم يتلقى من أعوانه ما يدل على تنفيذها .

(فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) أى يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، ثم يصير الأمر كله إليه ليحكم فيه فى يوم مقداره ألف سنة مما كنا نعده فى هذه الحياة .

والمراد بالألف الزمن المتطاول ، وليس المقصد منه حقيقة العدد ، إذ هو عند العرب منتهى المراتب العددية ، وأقصى غاياتها ، وليس هناك مرتبة فوقه إلا مايتفرع منه من أعداد مراتبها .

قال القرطبي : المعنى إن الله تعالى جعله فى صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة قاله ابن عباس ، والعرب تصف أيام المكروه بالطول ، وأيام السرور بالقصر ، قال شاعرهم :

ويوم كظل الرمح قصّر طوله دمُ الزقّ عنا واصطفاقُ المزاهر اهـ

(ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شىء خلقه) أى ذلك المدبر لهذه الأمور ، هو العالم بمايغيب عن أبصاركم ، مما تكنه الصدور ، وتخفيه النفوس ، وما لم يكن بعد مما هو كائن ، وبما شاهدته الأبصار وعاينته ، وهو الشديد فى انتقامه ممن كفر به ، وأشرك معه غيره ، وكذب رسله ، وهو الرحيم بمن تاب من ضلالته ، ورجع إلى الإيمان به وبرسوله ، وعمل صالحا ، وهو الذى أحسن خلق الأشياء وأحكمها .

ولما ذكر خلق السموات والأرض شرع يذكر خلق الإنسان ، فقال :

(وبدأ خلق الإنسان من طين) أى وبدأ خلق آدم أبى البشر من الطين ، وقد

يكون المعنى إن الطين ماء وتراب مجتمعان ، والآدمى أصله منىّ ، والمنىّ من الغذاء ، والأغذية إما حيوانية ، وإما نباتية ، والحيوانية ترجع إلى النباتية ، والنبات وجوده بالماء والتراب وهو الطين .

(ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) أى ثم جعل ذريته يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة .

(ثم سواه ونفخ فيه من روحه) أى ثم عدّله بتكميل أعضائه فى الرحم ، وتصويره على أحسن صورة ، ونفخ فيه من روحه ، وجعلها تتعلق ببدنه ، فيبدأ يتحرك ، وتظهر فيه آثار الحياة ، ثم ينطق ويتكلم .

(وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) أى وأنعم عليكم ، فأعطاكم السمع تسمعون به الأصوات ، والأبصار تبصرون بها المرئيات ، والأفئدة تميزون بها بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل .

ثم بين أن الإنسان قابل هذه النعم بالكفران إلا من رحم الله ، فقال :

(قليلا ما تشكرون) أى وأنتم تشكرون ربكم قليلا من الشكر على هذه النعم التى أنعم بها عليكم باستعمالها فى طاعة الله وعمل ما يرضيه .

وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الرسالة بقوله : « لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ » ، والوحدانية بقوله : « اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ » الخ . أردف ذلك بذكر البعث ، واستبعاد المشركين له ، ثم الرد عليهم .

الإيضاح

(وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ؟) أى وقال المشركون بالله المكذبون بالبعث: أئذا صارت لحومنا وعظامنا ترابا فى الأرض؟ أنبعث خلقا جديدا؟.

وخلاصة مقالهم : عظيم الاستبعاد للإعادة بأنها كيف تعقل وقد تمزقت الجسوم وتفرقت فى أجزاء الأرض ؟ .

وهم قد قاسوا قدرة الخالق الذى بدأهم أول مرة ، وأنشأهم من العدم بقدرة المخلوق العاجز — شتّان بينهما — إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون .

ثم زاد فى النعى عليهم والإنكار لآرائهم بقوله :

(بل هم بلقاء ربهم كافرون) أى ماجحود هؤلاء المشركين جحود قدرة الله على مايشاء فحسبُ ، بل هم تعدَّوْا ذلك إلى الجحود بلقاء ربهم حذر عقابه ، وخوف مجازاته إياهم على معاصيهم ، فهم من جرّاء ذلك يجحدون لقاءه .

ثم رد عليهم مقالتهم ، وشديد استنكارهم بقوله :

(قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) أصل التوفى أخذ الشىء وافيا كاملا ، أى قل لهؤلاء المشركين : إن ملك الموت الذى وكل بقبض أرواحكم يستوفى العدد الذى كتب عليه الموت منكم حين انتهاء أجله ، ثم تردون إلى ربكم يوم القيامة أحياء كهيئتكم قبل وفاتكم ، فيجازى المحسن منكم بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، وفى هذا إثبات للبعث مع تهديدهم وتخويفهم ، وإشارة إلى أن القادر على الإماتة قادر على الإحياء .

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَـكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ

أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)

المعنى الجملى

بعد أن أثبت البعث والرجوع ـ بين حال المشركين حين معاينة العذاب ، ووقوفهم بين يدى الله ذليلين ناكسى رءوسهم من الحياء والخجل طالبى الرجوع إلى الدنيا لتحسين أعمالهم ، ثم بين أنه لاسبيل إلى العودة ، لأنهم لو ردوا لعادوا إلى مانهوا عنه ، وأنه قد ثبت فى قضائه ، وسبق فى وعيده أن جهنم تمتلئ من الجنة والناس ممن ساءت أعمالهم ، وقبحت أفعالهم ، فلا يصلحون لدخول الجنة ، ويقال لهم : ذوقوا عذاب النار جزاء ما عملتم فى الدنيا ، وقد نسيتم لقاء ربكم ، فجازاكم بفعالكم ، وجعلكم كالمنسيين من رحمته .

الإيضاح

(ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا) أى ولو ترى أيها الرسول هؤلاء القائلين : أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ـ ناكسى رءوسهم عند ربهم حياء وخجلا منه ، لما سلف منهم من معاصيهم له فى الدنيا ، قائلين : ربنا أبصرنا الحشر ، وسمعنا قول الرسول وصدقنابه ، فارجعنا إلى الدنيا نعمل صالح الأعمال ، وهذا منهم عود على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار ، كما حكى عنهم سبحانه قولهم : « لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

ثم ادّعوا اطمئنان قلوبهم حينئذ ، وقدرتهم على فهم معانى الآيات ، والعمل بموجبها ، كما حكى الله عنهم بقوله :

(إنا موقنون) أى إنا قد أيقنا الآن ما كنا به فى الدنيا جهالا من وحدانيتك ، وأنه لايصلح للعبادة سواك ، وأنك تحيي وتميت ، وتبعث من فى القبور بعد الممات والفناء ، وتفعل ما تشاء .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ، فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا » الآية .

(ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) أى ولو أردنا أن نلهم كل نفس ماتهتدى به إلى الإيمان والعمل الصالح لفعلنا ، ولكن تدبيرنا للخلق على نظم كاملة ، كفيلة بمصالحه ، قضى أن نضع كل نفس فى المرتبة التى هى أهل لها على حسب استعدادها ، كما توضع الإنسان العين فى موضع لايصلح له الظفر والإصبع ، والمعدة فى موضع لايصلح له القلب ، وهذا هو المراد من قوله :

(ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) أى ولكن سبق وعيدى بملء جهنم من الجنة والناس الذين هم أهل لها ، على حسب استعدادهم ولا يصلحون لدخول الجنة ؛ كما لا يعيش البعوض والذباب ، إلا فى الأماكن القذرة ، ليخلص الجو من العفونات ، ولو جعلا فى القصور النظيفة النقية ما عاشا فيها ، إذ لايجدن فيها غذاء ولامنفعة لهما :

وهكذا هؤلاء إذا رأوا العالم المضىء المشرق ، والأنوار المتلألئة ، والحياة الطيبة فى الجنة لم يستطيعوا دخولها ، وعجزوا عن ذلك ، فما مثلهم إلا مثل السمك الذى لايعيش فى البر ، ومثل ذوات الأربع التى لاتعيش فى البحر .

ولما بين لهم أنه لارجوع إلى الدنيا أنبهم على ما عملوا من تدسية نفوسهم بفعل المعاصى ، وترك الطاعة له ، فقال :

(فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا) أى فذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم بهذا اليوم ، واستبعادكم وقوعه ، وعملكم عمل من لايظن أنه راجع إلى ربه فملاقيه .

ثم ذكر لهم جزاءهم على فعل المعاصى ، فقال :

(إنا نسيناكم) أى إنا سنعاملكم معاملة الناسى ، لأنه تعالى لاينسى شيئا ، ولايضل عن شىء ، وهذا أسلوب فى الكلام يسمى أسلوب المشاكلة ، ونحوه : « فَالْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا » وقوله : « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ » وقوله : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » .

(وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) أى وذوقوا عذابا تخلدون فيه إلى غير نهاية بسبب كفركم وتكذيبكم بآيات ربكم ، واجترامكم للشرور والآثام .

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)

شرح المفردات

ذكروا بها : أى وعظوا ، خروا : أى سقطوا ، سبحوا بحمد ربهم : أى نزهوه عما لايليق به ، تتجافى : أى ترتفع وتبتعد ، قال عبد الله بن رواحة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الصبح ساطع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

والجنوب : واحدها جنب ، وهو الشق ، والمضاجع : واحدها مضجع ، وهو مكان النوم ، أخفى لهم : أى خبئ لهم ، من قرة أعين : أى من شىء نفيس تقر به أعينهم وتسر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه علامة أهل الكفر من طأطأة الرءوس خجلا وحياء مما صنعوا فى الدنيا ، وذكر ما يلاقونه من العذاب المهين يوم القيامة ـ عطف ذلك بذكر علامة أهل الإيمان من تذللهم لربهم ، وتسبيحهم بحمده ، ومجافاتهم المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ، ثم أردفه بذكر ما يلاقونه من نعيم مقيم ، وقرة أعين جزاء لهم على جميل أعمالهم ، ومحاسن أقوالهم .

الإيضاح

(إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) أى ما يصدّق بحججنا وآيات كتابنا إلا الذين إذا وعظوا بها خروا لله سجدا تذللا واستكانة لعظمته ، وإقرارا بعبوديته ، ونزهوه فى سجودهم عما لا يليق به مما يصفه به أهل الكفر من الصاحبة والولد والشريك ، يفعلون ذلك وهم لا يستكبرون عن طاعته كما يفعل أهل الفسق والفجور حين يسمعونها ، فإنهم يولون مستكبرين ، كأن لم يسمعوها .

ثم ذكر بقية محاسنهم بقوله :

(تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون) أى يتنحون عن مضاجعهم التى يضطجعون فيها لمنامهم ، فلا ينامون ، داعين ربهم خوفا من سخطه وعذابه ، وطمعا فى عفوه عنهم ، وتفضله عليهم برحمته ومغفرته ، ومما رزقناهم من المال ينفقون فى وجوه البر ، ويؤدون حقوق الله التى أوجبها عليهم فيه ،

قال أنس بن مالك : « نزلت فينا معاشر الأنصار ، كنا نصلى المغرب ، فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى صلى الله عليه وسلم » ، وعن معاذ بن جبل عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » قال : هى قيام العبد أول الليل .

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولحافه من بين حِبِّه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى ، وشفقة مما عندى ؛ ورجل غزا فى سبيل الله تعالى فانهزم ، فعلم ما عليه من الفرار ، وماله فى الرجوع ، فرجع حتى أُهَريق دمه رغبة فيما عندى ، وشفقة مما عندى ، فيقول الله عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى ، ورهبة مما عندى حتى أهريق دمه » .

وأخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه عن مُعاذ بن جبل قال : « كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير ؛ فقلت : يا نبى الله أخبرنى عما يدخلنى الجنة ، ويباعدنى عن النار . قال : لقد سألت عن عظيم وإنه يسير على من يسَّره الله تعالى عليه – تعبد الله ولاتشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ؛ ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنَّة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل فى جوف الليل ؛ ثم قرأ : تتجافى جنوبهم عن المضاجع – حتى بلغ – جزاء بما كانوا يعملون ؛ ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ فقلت : بلى يارسول الله ، فقال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله ؛ ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ فقلت : بلى يانبى الله ، فأخذ بلسانه ؛ ثم قال : كفّ عليك هذا ، فقلت : يارسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يامعاذ ، وهل يكُبّ الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال فى الآية : « تتجافى جنوبهم لذكر الله ، كلما استيقظوا ذكروا الله عز وجل : إما فى الصلاة ، وإما فى قيام أو قعود ، أو على جنوبهم ، لايزالون يذكرون الله تعالى » .

وقال الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعى وغيرهم : إن المراد بالتجافى القيام لصلاة النوافل بالليل .

بعد أن ذكر جزاء المستكبرين أرشد إلى جزاء المتواضعين بقوله :

(فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون) أى فلا يعلم أحد عظيم ما أخفى لهم من النعيم واللذات التى لم يطلع على مثلها أحد جزاء وفاقا بما كانوا يعملون من صالح الأعمال ، أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم .

روى الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، بَلْهَ ما أطلعتكم عليه ، اقرءوا إن شئتم : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » .

وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وابن جرير والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : « إنه لمكتوب فى التوراة : لقد أعدّ الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، ولا يعلم ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، وإنه لفى القرآن : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) » .

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً ؟ لَا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢)

شرح المفردات

أصل الفسق : الخروج ؛ من فسقت الثمرة إذا خرجت من قشرها ، ثم استعمل فى الخروج من الطاعة وأحكام الشرع مطلقا ، فهو أعم من الكفر ، وقد يخص به كما فى قوله : « وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » ، والمأوى : المسكن ؛ وأصل النزل : ما يعد للنازل من الطعام والشراب والصلة ، ثم أطلق على كل عطاء ، والمراد به هنا الثواب والجزاء ، الأدنى : أى الأقرب ؛ والمراد به عذاب الدنيا ، فإنه أقرب من عذاب الآخرة وأقل منه ، وقد ابتلاهم الله بسنى جدب وقحط أهلكت الزرع والضرع ، والعذاب الأكبر : عذاب يوم القيامة .

المعنى الجملى

لما بيّن حالى المجرمين والمؤمنين ـ عطف على ذلك بسؤال العقلاء : هل يستوى الفريقان ؟ و بين أنهما لا يستويان ، ثم فصّل ذلك ببيان مآل كل منهما يوم القيامة .

الإيضاح

(أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون) أى أفهذا الكافر المكذب وعد الله ووعيده ، المخالف أمره ونهيه ، كهذا المؤمن بالله المصدّق وعده ووعيده ، المطيع لأمره ونهيه ـ كلا ـ لا يستوون عند الله ولا يعتدل الكفار به والمؤمنون .

وخلاصة ذلك : أبعد ظهور ما بينهما من تفاوت بيّن يظن أن المؤمن الذى حكيت أوصافه كالكافر الذى ذكرت قبائح أعماله ؟ كلا ـ إن الفضل بينهما لا يخفى على ذى عينين .

ونحو الآية قوله : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » وقوله :

« أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ » وقوله : « لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ » الآية .

وبعد أن نفى استواءهما أتبعه بذكر حال كل منهما على سبيل التفصيل :

(أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون) أى أما الذين صدقوا الله ورسوله فيما أمروا وَنَهَوْا ـ فلهم مساكن فيها البساتين والدور، والغرف العالية جزاء لهم على جليل أعمالهم ، وطيب أفعالهم التى كانوا يعملونها فى الدنيا .

(وأما الذين فسقوا فمأواهم النار) أى وأما الذين كفروا بالله ، واجترموا الشرور والآثام ، فمساكنهم التى يأوون إليها فى الآخرة ويستريحون هى النار ، وبئس القرار .

وفى هذا ضرب من التهكم بهم ، إذ جعلت النار ملجأ ومستراحا لهم يستريحون إليها ، فهو كقوله : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

ثم بين حالهم فيها ونفورهم منها ، فقال :

(كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) أى كلما شارفوا الخروج منها ، وظنوا أنه قد تيسر لهم ذلك ، وهم بعدُ فى غمراتها أعيدوا فيها ، ودفعوا إلى قعرها .

روى أن لهب النار يضربهم فيرتفعون إلى أعلاها ، حتى إذا قربوا من أبوابها ، وأرادوا أن يخرجوا منها يضربهم اللهب فيهوون إلى قعرها ـ وهكذا يُفْعل بهم أبدا .

قال الفضيل بن عياض : والله إنّ الأيدى لموثقة ، وإن اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمعُهم .

ثم ذكر ما يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ :

(وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) أى ذوقوا عذابها الذى كنتم تكذبون فى الدنيا أن الله قد أعده لأهل الشرك به .

ثم بين أن عذاب الآخرة له مقدمات فى الدنيا ، لأن الذنب مستوجب لنتائجه عاجلا وآجلا ، فقال :

(ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) أى ولنبتلينهم بمصايب الدنيا وأسقامها وآفاتها من المجاعات والقتل ، ونحو ذلك ، عظة لهم ليقلعوا عن ذنوبهم قبل العذاب الأكبر ، وهو عذاب يوم القيامة .

ثم ذكر حال من قابل آيات الله بالإعراض ، بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد ، فقال :

(ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ؟) أى لا أظلم ممن ذكره الله بحججه ، وآى كتابه ورسله ، ثم أعرض عن ذلك كله ، ولم يتعظ به ، بل تناساه ، كأنه لايعرفه .

ثم بين جزاءه على ذلك ، فقال :

(إنا من المجرمين منتقمون) أى إنا سننتقم أشد الانتقام من الذين اجترحوا السيئات واكتسبوا الآثام والمعاصى ، روى ابن جرير بسنده عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ثلاث من فعلهن فقد أجرم : من عقد لواء فى غير حق ، أو عقّ والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره ، فقد أجرم ، يقول الله : (من المجرمين منتقمون) » .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه فى أول السورة الرسالة والتوحيد والبعث ـ عاد فى آخرها إلى ذكرها مرة أخرى ، فقال :

الإيضاح

(ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه) المرية : الشك ، أى إنا آتينا موسى التوراة مثل ما آتيناك القرآن ، وأنزلنا عليك الوحى مثل ما أنزلناه عليه ، فلا تكن فى شك من لقائك الكتاب ، فأنت لست ببدع من الرسل كما قال تعالى : « قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ » .

وذكر موسى من بين سائر الرسل لقرب عهده من النبى صلى الله عليه وسلم ووجود من كان على دينه بينهم إلزامًا لهم ، ولم يذكر عيسى ، لأن اليهود ما كانوا يعترفون بنبوته ، والنصارى كانوا يقرون بنبوة موسى ، فذكر المجمع عليه .

وقد يكون ذكره لأن الآية جاءت تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لما أتى بكل آية وذكّرهم بها ، وأعرض قومه عنها حزن حزنا شديدا ، فقيل له : تذكر حال موسى ولا تحزن ، فإنه قد لقى مثل ما لقيت ، وأوذى كما أوذيت ، فإنّ من لم يؤمن به آذاه ، كفرعون وقومه ، ومن آمنوا به من بنى إسرائيل آذوه أيضا بالمخالفة له كقولهم : « أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً » ، وقولهم : « اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا » ، وغيره من الأنبياء لم يؤذه إلا من لم يؤمن به .

(وجعلناه هدى لبنى إسرائيل) أى وجعلنا الكتاب الذى آتيناه مرشدا لبنى إسرائيل إلى طريق الهدى كما جعلناك مرشدا لأمتك .

ونحو الآية قوله : « وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِى إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِى وَكِيلًا » .

(وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) أى وجعلنا من بنى إسرائيل رؤساء فى الخير يهدون أتباعهم وأهل القبول منهم بإذننا لهم وتقويتنا إياهم ، لأنهم صبروا على طاعتنا ، وعزفت أنفسهم عن لذات الدنيا وشهواتها ، وكانوا من أهل اليقين بحججنا وبما تبين لهم من الحق .

وفى ذلك إيماء إلى أن الكتاب الذى آتينا كه سيكون هداية للناس ، وسيكون من أتباعه أئمة يهدون مثل تلك الهداية .

(إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أى إن ربك يقضى بين خلقه يوم القيامة فيما كانوا فيه فى الدنيا يختلفون من أمور الدين والثواب والعقاب ، فيدخل الجنة أهل الحق ، ويدخل النار أهل الباطل .

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ، أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)

المعنى الجملى

بعد أن أعاد ذكر الرسالة فى قوله : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أعاد هنا ذكر التوحيد .

الإيضاح

(أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ؟) أى أو لم يبين لهم طريق الحق كثرةُ من أهلكنا من القرون الماضية الذين يمشون فى أرضهم ، ويشاهدون آثار هلاكهم كعاد وثمود وقوم لوط .

والخلاصة : أو لم يرشد هؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم لرسلهم ، ومخالفتهم إياهم فيما جاءوهم به من سبل الحق ، فلم يُبق منهم باقية ، ونحو الآية قوله : « هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا » ، وقوله : « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا » ، وقوله : « فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ » .

(إن فى ذلك لآيات) أى إن فى خلاء مساكن القرون الذين أهلكناهم من أهلها الذين كانوا عُمّارها بإهلاكهم ، لما كذبوا ر..... جحدوا بآياتنا ، وعبدوا غير الله لآياتٍ لهم وعظات يتعظون بها لو كانوا من أولى الحجا .

(أفلا يسمعون ؟) عظات الله وتذكيره إياهم ، وتعريفهم مواضع حججه ؟ سماع تدبر وتفكر ليعتبروا بها .

و بعد أن بين قدرته على الإهلاك ــ أرشد إلى قدرته على الإحياء ليبين أن النفع والضر بيده تعالى ، فقال :

(أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم) الأرض الجرز : هى التى جرز نباتها وقطع ، إما لعدم الماء ، وإما لأنه رعى وأكل ، يقال : ناقة جروز إذا كانت تأكل كل شىء ، ورجل جروز أى أكول : أى ألم يشاهد هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت ، والنشر بعد الفساد ــ أنا بقدرتنا نسوق الماء إلى الأرض اليابسة التى لانبات فيها ، فنخرج به زرعا أخضر تأكل منه ماشيتهم ، وتتغذى به أجسامهم ، فيعيشون به ؟

(أفلا يبصرون ؟) أى أفلا يرون ذلك بأعينهم ، فيعلموا أن القدرة التى بها فعلنا ذلك لايتعذر عليها أن تحيى الأموات وتنشرهم من قبورهم ، وتعيدهم بهيآتهم التى كانوا بها قبل موتهم ؟.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَـذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)

شرح المفردات

الفتح : أى الفصل فى الخصومة بيننا وبينكم ، وينظرون : أى يمهلون ويؤخرون .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت الرسالة والتوحيد ـ عطف على ذلك ذكر الحشر ، وبذلك صار ترتيب آخر السورة متناسقا مع ترتيب أولها ، فقد ذكر الرسالة فى أولها بقوله (لتنذر قوما) وفى آخرها بقوله (ولقد آتينا موسى الكتاب) وذكر التوحيد فى أولها بقوله (الذى خلق السموات والأرض) وفى آخرها بقوله (أو لم يهد لهم) وقوله (أو لم يروا أنا نسوق الماء) وذكر الحشر فى أولها بقوله (أئذا ضللنا فى الأرض) وفى آخرها بقوله : (ويقولون متى هذا الفتح ؟) .

الإيضاح

(ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ؟) أى ويقول المشركون على طريق الاستهزاء والاستبعاد : متى تُنصر علينا أيها الرسول كما تزعم أن لك وقتا تنتصر علينا وينتقم الله منا ؟ وما نراك وأصحابك إلا مختفين خائفين أذلة ـ إن كنتم صادقين فى الذى تقولون من أنا معاقبون على تكذيبنا الرسول ، وعبادة الآلهة والأوثان ، وهم ولا شك لا يستعجلونه إلا لاستبعادهم حصوله وإنكارهم إياه ، وتكذيبهم له .

وقد أمر الله نبيه أن يجيبهم عن استبعادهم موبخا لهم بقوله :

(قل يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون) أى قل لهم : إذا حل بكم بأس الله وسخطه فى الدنيا وفى الآخرة لاينفعكم إيمانكم الذى تُحْدِثونه فى هذا اليوم ، ولاتؤخرون للتوبة والمراجعة .

والخلاصة : لاتستعجلوا به ولاتستهزئوا ، فكأنى بكم وقد حل ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان ، واستنظرتم حلول العذاب ، فلم تُنْظَروا .

ثم ختم السورة بأمر رسوله بالإعراض عنهم ، وانتظار الفتح بينه و بينهم ، فقال :

(فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) أى فأعرض عن هؤلاء المشركين ، ولاتبال بهم ، و بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وانتظر ما الله صانع بهم ، فإنه سينجزك ما وعد ، وسينصرك على من خالفك ، إنه لايخلف الميعاد ، وهم منتظرون يتربصون بكم الدوائر كما قال « أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ » .

وسترى عاقبة صبرك عليهم ، وعلى أداء رسالة ربك بنصرتك وتأييدك ، وسيجدون غِبّ ما ينتظرون فيك ، وفى أصحابك من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

مجمل ما اشتملت عليه السورة الكريمة من الموضوعات

(١) إثبات رسالة النبى صلى الله عليه وسلم و بيان أن مشركى العرب لم يأتهم رسول من قبله .

(٢) إثبات وحدانية الله ، وأنه المتصرف فى الكون ، المدبر له على أتم نظام وأحكم وجه .

(٣) إثبات البعث والنشور ، و بيان أنه يكون فى يوم كألف سنة مما تعدون .

(٤) تفصيل خلق الإنسان فى النشأة الأولى ، و بيان الأطوار التى مرت به ، حتى صار بشراً سويا .

● وصف الذلة التى يكون عليها المجرمون يوم القيامة ، وطلبهم الرجوع إلى الدنيا لإصلاح أحوالهم ، ورفض ما طلبوا لعدم استعدادهم للخير والفلاح .

(٦) تفصيل أحوال المؤمنين فى الدنيا ، وذكر ما أعده الله لهم من النعيم ، والثواب العظيم فى الآخرة .

(٧) استعجال الكفار لمجىء يوم القيامة استبعادا منهم لحصوله .

سورة الأحزاب

هى مدنية نزلت بعد آل عمران .

وعدة آيها ثلاث وسبعون .

ووجه اتصالها بما قبلها تشابه مطلع هذه وخاتمة السالفة ، فإن تلك ختمت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن الكافرين ، وانتظار عذابهم ، وهذه بدئت بأمره عليه الصلاة والسلام بالتقوى ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين واتباع ماأوحى إليه من ربه مع التوكل عليه .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً (٣)

شرح المفردات

قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله ، وتوكل على الله : أى فوض أمورك إليه ، الوكيل : الحافظ للأمور .

المعنى الجملى

أخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن أهل مكة ، ومنهم الوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة دعوا النبى صلى الله عليه وسلم أن

يرجع عن قوله : على أن يعطوه شطر أموالهم ، وخوّفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه ، فنزلت الآيات .

الإيضاح

(يأيها النبي اتق الله) أى يأيها النبي خف الله بطاعته ، وأداء فرائضه ، وواجب حقوقه عليك ، وترك محارمه ، وانتهاك حدوده .

والخلاصة : يأيها المخبر عنا ، المأمون على وحينا ، اثبت على تقوى الله ، ودم عليها .

ولما وجه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم الأمر بتقوى الولىّ الودود ـ أتبعه بالنهى عن الالتفات نحو العدو الحسود ، فقال :

(ولا تطع الكافرين والمنافقين) أى ولا تطع الكافرين الذين يقولون لك : اطرد عنا أتباعك من ضعفاء المؤمنين ، حتى نجالسك ، والمنافقين الذين يظهرون لك الإيمان والنصيحة ، وهم لا يألونك وأصحابك إلا خبالا ، فلا تقبل لهم رأيا ، ولا تستشرهم مستنصحا بهم ، فإنهم أعداؤك ، ويودون هلاكك ، وإطفاء نور دينك .

روى أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تابعه ناس من اليهود نفاقا ، وكان يُلين لهم جانبه ، ويظهرون له النصح خداعا ؛ فحذره الله منهم ، ونبهه إلى عداوتهم .

ثم علل ما تقدم بقوله :

(إن الله كان عليما حكيما) أى إن الله عليم بما تضمره نفوسهم ، وما الذى يقصدونه من إظهار النصيحة ، وبالذى تنطوى عليه جوانحهم ، حكيم فى تدبير أمرك ، وأمر أصحابك ، وسائر شئون خلقه ، فهو أحق أن تتبع أوامره وتطاع .

والخلاصة : إنه تعالى هو العليم بعواقب الأمور ، الحكيم فى أقواله وأفعاله ، وتدبير شئون خلقه .

ثم أكد وجوب الامتثال بأن الآمر لك هو مربيك فى نعمه ، الغامر لك بإحسانه ، فهو الجدير أن يتبع أمره ، ويجتنب نهيه ، فقال :

(واتبع ما يوحى إليك من ربك) أى واعمل بما ينزله عليك ربك من وحيه ، وآى كتابه .

ثم علل ذلك بما يرغبه فى اتباع الوحى ، وبما ينأى به عن طاعة الكافرين والمنافقين ، فقال :

(إن الله كان بما تعملون خبيرا) أى إن الله خبير بما تعمل أنت وأصحابك ، لايخفى عليه شىء منه ، ثم يجازيكم على ذلك بما وعدكم من الجزاء .

ثم أمر رسوله بتفويض أموره إليه وحده ، فقال :

(وتوكل على الله) أى وفوض أمورك إليه وحده ، واعتمد عليه فى شئونك .

(وكفى بالله وكيلا) أى وكفى به حافظا ، يوكل إليه جميع الشئون ، فلا تلتفت فى شىء من أمرك إلى غيره .

والخلاصة : حسبك الله ، فإن أراد نفعا لايدفعه أحد عنك ، وإن أراد ضرا لم يمنعه منك أحد .

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥)

شرح المفردات

جعل : أى خلق ، ويقال : ظاهر الرجل من زوجته إذا قال لها : أنت علىّ كظهر أمى ، يريدون أنت محرمة علىّ كما تحرم الأم ، وكانوا فى الجاهلية يُجرون على المظاهر منها حكم الأم ، والأدعياء : واحدهم دعىّ ، وهو الذى تدعّى بنوته ، وقد كانت تجرى عليه أحكام الابن فى الجاهلية وصدر الإسلام ، السبيل : أى طريق الحق ، أقسط : أى أعدل ، ومواليكم : أى أولياؤكم فيه .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله نبيه بتقواه ، والخوف منه ، وحذره من طاعة الكفار والمنافقين ، والخوف منهم ـ ضرب لنا مثلا يبين أنه لايجتمع خوف من الله وخوف من سواه ، فذكر أنه ليس للإنسان قلبان حتى يطيع بأحدهما ويعصى بالآخر ، وإذا لم يكن المرء إلا قلب واحد ، فمتى اتجه لأحد الشيئين صدّ عن الآخر ، فطاعة الله تصد عن طاعة سواه ، وهكذا لاتجتمع الزوجية والأمومة فى امرأة ، والبنوة الحقيقية والتبنى فى إنسان .

روى الشيخان والترمذى والنسائى فى جماعة آخرين عن ابن عمر رضى الله عنهما «أن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : (ادعوهم لآبائهم) الآية ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أنت زيد بن حارثة بن شراحيل .

وكان من خبره أنه سبى من قبيلته كلب وهو صغير ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة ، فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له ، ثم طلبه أبوه وعمه؛ فخير بين أن يبقى مع رسول الله ، وأن يذهب مع أبيه ، فاختار البقاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعتقه وتبناه ، وكانوا يقولون زيد بن محمد ؛ فلما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب ، وكانت زوجا لزيد وطلقها ؛ قال المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه ،

وهو ينهى عن ذلك ، فنزلت الآية لنفى أن يكون للمتبنَّى حكم الابن حقيقة فى جميع الأحكام التى تعطى للابن .

الإيضاح

(ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) كان أهل مكة يقولون : إن مَعْمَرًا الفِهْرِىّ له قلبان لقوة حفظه ، وروى أنه كان يقول : إن لى قلبين أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد ، وكانت العرب تزعم أن كل أريب له قلبان ، فأكذب الله فى هذه الآية قوله وقولهم :

(وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) أى ولم يجعل الله لكم أيها الرجال نساءكم اللائى تقولون لهن : أنتنّ علينا كظهور أمهاتنا ـ أمهاتكم ، بل جعل ذلك من قبلكم كذبا وألزمكم عقوبة .

وقد كان الرجل فى الجاهلية متى قال هذه المقالة لامرأته صارت حراما عليه حرمة مؤبدة ، فجاء الإسلام ومنع هذا التأبيد ، وجعل الحرمة مؤقتة ، حتى يؤدى كفّارة (غرامة) لانتهاكه حرمة الدين ، إذ حرم ما أحل الله .

(وما جعل أدعياءكم أبناءكم) أى ولم يجعل الله من ادعى أحدكم أنه ابنه ، وهو ابن غيره ـ ابنا له بدعواه فحسب .

وفى هذا إبطال لما كان فى الجاهلية وصدر الإسلام من أنه : إذا تبنى الرجل ابن غيره أجريت عليه أحكام الابن النسبى ، وقد تبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة زيد بن حارثة ، والخَطّابُ عامر بن ربيعة وأبو حذيفة سالما .

ثم أكد ما سبق بقوله :

(ذلكم قولكم بأفواهكم) أى هذا الذى تقدم من قول الرجل لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى ، ودعاء من ليس بابنه أنه ابنه إنما هو قولكم بأفواهكم ، لا حقيقة له ، فلا تصير الزوجة أما ، ولا يثبت بهذه دعوى النسب .

(والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) أى والله هو الصادق ، الذى يقول الحق وبقوله : يثبت نسب من أثبت نسبه ، وبه تكون المرأة أمّا إذا حكم بذلك ، وهو يبين لعباده سبيل الحق ، ويهديهم إلى طريق الرشاد ، فدعوا قولكم ، وخذوا بقوله عزّ اسمه .

وخلاصة ما سلف :

(١) إنه لم ير فى حكمته أن يجعل للإنسان قلبين ، لأنه إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر ، فأحدهما يكون نافلة غير محتاج إليه ، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك ، وهذا يؤدى إلى التناقض فى أعمال الإنسان ، فيكون مريدا للشىء كارها له ، وظانا له موقنا به فى حال واحدة ، وهذا لن يكون .

(٢) إنه لم ير أن تكون المرأة أما لرجل وزوجا له ، لأن الأم مخدومة ، مخفوض لها الجناح ، والمرأة مستخْدَمة فى المصالح الزوجية على وجوه شتى .

(٣) لم يشأ فى حكمته أن يكون الرجل الواحد دعيّا لرجل وابنا له ، لأن البنوة نسب أصيل عريق ، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لاغير ، ولا يجتمع فى الشىء الواحد أن يكون أصيلا غير أصيل .

ولما ذكر أنه يقول الحق فصل هذا الحق بقوله :

(ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) أى انسبوا أدعياءكم الذين ألحقتم أنسابهم بكم لآبائكم ، فقولوا : زيد بن حارثة ، ولا تقولوا زيد بن محمد ، فذلك أعدل فى حكم الله وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم .

(فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم) أى فإن أنتم أيها الناس لم تعرفوا آباء أدعيائكم من هم ؟ حتى تنسبوهم إليهم ، وتلحقوهم بهم ؛ فهم إخوانكم فى الدين إن كانوا قد دخلوا فى دينكم ، ومواليكم إن كانوا محررين أى قولوا : هو مولى فلان ، ولهذا قيل لسالم بعد نزول الآية : مولى حذيفة ، وكان قد تبناه قبل .

(وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) أى ولا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين قبل النهى أو بعده نسيانا أو سبق لسان.

(ولكن ما تعمدت قلوبكم) ولكن الجناح والإثم عليكم فيما فعلتموه عامدين.

وخلاصة ما سلف: إنه لا إثم عليكم إذا نسبتم الولد لغير أبيه خطأ غير مقصود، كأن سهوتم أو سبق لسانكم بما تقولون، ولكن الإثم عليكم إذا قلتم ذلك متعمدين.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة أنه قال فى الآية: «لو دعوت رجلا لغير أبيه، وأنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس، ولكن ما تعمدت وقصدت دعاءه لغير أبيه».

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان الله ستارا لذنب من ظاهر من زوجته، وقال الزور والباطل من القول، وذنب من ادعى ولد غيره ابنا له إذا تابا وراجعا إلى أمر الله وانتهيا عن قيل الباطل بعد أن نهاهما؛ رحيما بهما فلا يعاقبهما على ذلك بعد توبتهما.

النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ، وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف: أن الدعىّ ليس ابنا لمن تبناه، فمحمد صلى الله عليه وسلم ليس أبا لزيد بن حارثة، ثم أعقب ذلك بالإرشاد إلى أن المؤمن أخو المؤمن فى الدين، فلا مانع أن يقول إنسان لآخر: أنت أخى فى الدين ـ أردف ذلك ببيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس أبا لواحد من أمته، بل أبوته عامة، وأزواجه أمهاتهم وأبوته أشرف من أبوة النسب، لأن بها الحياة الحقيقية، وهذه بها الحياة الفانية، بل

هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا حضهم على الجهاد ونحوه ، فذلك لارتقائهم الروحى ، فإذاً كيف يستأذن الناس آباءهم وأمهاتهم حين أمرهم صلى الله عليه وسلم بغزوة تبوك ، وهو أشفق عليهم من الآباء ، بل من أنفسهم .

روى البخارى عن أبى هريرة قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فأيما مؤمن ترك مالا ، فلترثه عصبته من كانوا ، ومن ترك دينا أو ضياعا (عيالا) فليأتنى ، فأنا مولاه » .

وفى الصحيح أن عمر رضى الله عنه قال : « يارسول الله ، والله لأنت أحب إلىّ من كل شىء إلا من نفسى ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال : يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلىّ من كل شىء ، حتى من نفسى ، فقال صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر » .

الإيضاح

(النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أى النبى أشد ولاية ونصرة لهم من أنفسهم ، فإنه عليه الصلاة والسلام لايأمرهم إلا بما فيه خيرهم وصلاحهم ، ولاينهاهم إلا عما يضرهم ويؤذيهم فى دنياهم وآخرتهم ، أما النفس فإنها أمارة بالسوء ، وقد تجهل بعض المصالح ، وتخفى عليها بعض المنافع .

ومما يلزم هذا أن يكون حكمه نافذا فيهم ، مقدما على ما يختارونه لأنفسهم ، كما قال : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

وخلاصة ذلك : إنه تعالى علم شفقة رسوله صلى الله عليه وسلم على أمته ، وشدة نصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم .

(وأزواجه أمهاتهم) أى هن منزلات منزلة الأمهات فى الحرمة والاحترام ،

والتوقير والإكرام ، وفيما عدا ذلك هن كالأجنبيات ، فلا يحل النظر إليهن ، ولا إرثهن ولا نحو ذلك .

وكان التوارث فى بدء الإسلام بالحِلْف والمؤاخاة بين المسلمين ، فكان المهاجرى يرث الأنصارى دون قراباته وذوى رحمه للأخوّة التى آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم حين الهجرة ، فقد آخى بين أبى بكر رضى الله عنه ، وخارجة بن زيد ، وآخى بين عمر وشخص آخر ، وآخى بين الزبير ، وكعب بن مالك ، فغيَّر الله الحكم بهذه الآية :

(وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين) أى وأولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين ، وحق المهاجرين بحق الهجرة فيما كتبه الله ، وفرضه على عباده .

والخلاصة : إن هذه الآية أرجعت الأمور إلى نصابها ، وأبطلت حكما شرع لضرورة عارضة فى بدء الإسلام ، وهو الإرث بالتآخى فى الدين ، والتآخى حين الهجرة بين المهاجرين والأنصار حين كان المهاجرى يرث الأنصارى دون قرابته وذوى رحمه .

ثم استثنى من ذلك الوصية ، فقال :

(إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا) الأولياء هنا المؤمنون والمهاجرون والمعروف الوصية أى إلا أن توصوا لهؤلاء بوصية ، فهم أحق بها من القريب الوارث .

ثم بين أن هذا الحكم هو الأصل فى الإرث ، وهو الحكم الثابت فى كتابه الذى لا يغيّر ولا يبدل ، فقال :

(كان ذلك فى الكتاب مسطورا) أى إن هذا الحكم ، وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض ــ حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الذى لا يبدل ولا يغير ، وإن كان قد شرع غيره فى وقت ما لمصلحة عارضة ، وحكمة بالغة ، وهو يعلم أنه سيغيره إلى ماهو جار فى قدره الأزلى ، وقضائه التشريعى .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً (٨)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف أحكاما شرعها لعباده ، وكان فيها أشياء مما كان فى الجاهلية ، وأشياء مما كان فى الإسلام ، ثم أبطلت ونسخت ـ أتبع ذلك بذكر ما فيه حث على التبليغ ، فذكر أخذ العهد على النبيين أن يبلغوا رسالات ربهم ، ولا سيما أولو العزم منهم ، وهم الخمسة المذكورون فى الآية ، كما ذكر فى آية أخرى سؤال الله أنبياءه عن تصديق أقوامهم له ، ليكون فى ذلك تبكيت للمكذبين من الكفار ، فقال : « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ » .

الإيضاح

(وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) أى واذكر أيها الرسول العهد والميثاق الذى أخذه الله على أولى العزم الخمسة ، وبقية الأنبياء ليقيمُنَّ دينه ، ويبلغُنَّ رسالته ، ويتناصرُنَّ كما قال فى آية أخرى : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي ؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا . قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » .

(وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) بسؤالهم عما فعلوا حين الإرسال كما قال : « وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ » .

وقد جرت العادة أن الملك إذا أرسل رسولا ، وأمره بشىء وقبله كان ذلك ميثاقا

عليه ، فإذا أعلمه بأنه سيسأله عما يقول ويفعل كان ذلك تغليظا للميثاق ، حتى لا يزيد ولا ينقص فى الرسالة .

ثم بين علة أخذ الميثاق على النبيين ، فقال :

(ليسأل الصادقين عن صدقهم) أى وأخذنا من هؤلاء الأنبياء ميثاقهم كما أسأل المرسلين عما أجابتهم به أممهم ، وما فعل أقوامهم فيما أبلغوهم عن ربهم من الرسالة .

(وأعدّ للكافرين عذابا أليما) أى ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعدّ لهم ثوابا عظيما ، ويسأل الكاذبين عن كذبهم ، وأعدّ لهم عذابا أليما .

غزوة الأحزاب ـ وقعة الخندق

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤)

وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ ، هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ، أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ ، يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا

خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)

شرح المفردات

المراد بالجنود هنا : الأحزاب ، وهم قريش يقودهم أبو سفيان ، و بنو أسد يقودهم طُلَيْحة ، وغطفان يقودهم عُيَيْنَة بن حصن ، و بنو عامر يقودهم عامر بن الطُّفَيْل ، و بنو سُلَيْم يقودهم أبو الأعور السُّلَمى ، و بنو النَّضير من اليهود ، ورؤساؤهم حُيَىّ بن أخطب ، وأبناء أبى الحُقَيق ، و بنو قُرَيْظة من اليهود أيضا سيدهم كعب بن أسد ، وكان بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنبذه كعب بسعى حيىّ ، وكان مجموع جيوش الأعداء عشرة آلاف أو نحو ذلك ، والجنود التى لم تروها : هى الملائكة من فوقكم : أى من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وكانوا بنى غطفان ، ومن أسفل منكم : أى من أسفل الوادى من قبل المغرب ، وكانوا قريشا ومن شايعهم ، و بنى كنانة ، وأهل تهامة ، زاغت الأبصار : أى انحرفت عن مستوى نظرها حيرة ودهشة ، و بلغت القلوب الحناجر : يراد به فزعت فزعا شديدا ، ابتلى المؤمنون : أى اختُبِروا وامتُحِنوا ، وزلزلوا زلزالا شديدا : أى اضطربوا اضطرابا شديدا من الفزع ، وكثرة العدوّ ، والذين فى قلوبهم مرض : قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم لقرب عهدهم بالإسلام ، إلا غرورا : أى إلا وعد غرور لاحقيقة له ؛ يثرب : من أسماء المدينة ، لامقام لكم : أى لاينبغى لكم الإقامة هاهنا ، عورة : أى ذات عورة لأنها خالية من الرجال ، ونخاف عليها سرق السرّاق ، والأقطار : واحدها قطر وهو الناحية والجانب ، والفتنة : الردة ومقاتلة المؤمنين ، آتوها : أى أعطوها ،

وما تلبثوا بها : أى وما أقاموا بالمدينة، يعصمكم : أى يمنعكم ، المعوّقين : أى المثبطين عن القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلم إلينا : أى أقبلوا إلينا ، والبأس : الشدة ، والمراد به هنا الحرب والقتال ، أشحة : واحدهم شحيح أى بخيل بالنصرة والمنفعة ، تدور أعينهم : أى تدير أعينهم أحداقهم من شدة الخوف ، سلقوكم : أى آذوكم بالكلام ، بألسنة حداد : أى ألسنة ذربة سلِطَة تفعل فعل الحديد ، أشحة على الخير : أى بخلاء حريصين على مال الغنائم ، أحبط الله أعمالهم : أى أبطلها لإضمارهم الكفر ، لو أنهم بادون فى الأعراب : أى خارجون إلى العدو ، مقيمون بين أهله ، أسوة : أى قدوة ، والمراد به المقتدى به ، قضى نحبه : أى فرغ من نذره ووفى بعهده ، وصبر على الجهاد حتى استشهد كحمزة ، ومصعب بن عمير ، والغيظ : أشد الغضب ، وكفى الله المؤمنين القتال : أى وقاهم شره ، عزيزاً : أى غالبا مستوليا على كل شىء ، ظاهروهم : أى عاونوهم ، من أهل الكتاب : أى من بنى قريظة ، من صياصيهم : أى من حصونهم واحدها صيصية وهى كل ما يمتنع به ؛ قال الشاعر :

فأصبحت الثيران صرْعَى وأصبحت نســـاء تميم يبتدرْن الصياصيا

وقذف : أى ألقى ، والرعب : الخوف الشديد .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله عباده بتقواه ، وعدم الخوف من سواه ـ ذكر هنا تحقيق ماسلف فأبان سبحانه أنه أنعم على عباده المؤمنين، إذ صرف عنهم أعداءهم وهزمهم حين تألبوا عليهم عام الخندق .

وتفصيل هذا على ما قاله أرباب السير : إن نفرا من اليهود قدموا على قريش فى شوال سنة خمس من الهجرة بمكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا لهم : إن دينكم خير من دينه ، ثم جاءوا غطفان وقيسا وعَيْلان ، وحالفوا جميع هؤلاء أن يكونوا معهم عليه ، فخرجت هذه القبائل ومعها قادتها وزعماؤها

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسيرهم أمر المسلمين بحفر خندق حول المدينة بإشارة سلمان الفارسى ، وعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وأحكموه ؛ وكان رسول الله يرتجز بكلمات ابن رواحة ، ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصـــدقنا ولا صلينا
فأنزلنْ سكينة علينـــا وثبّت الأقدام إن لاقينا

وفى أثناء العمل برزت لهم صخرة بيضاء فى بطن الخندق فكسرت حديدهم وشقت عليهم ، فلما علم بها صلى الله عليه وسلم أخذ المِعْوَل من سلمان وضربها به ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها (جانبى المدينة) حتى كأنه مصباح فى جوف بيت مظلم ؛ فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون وهكذا مرة ثانية وثالثة فكانت تضىء وكان التكبير ؛ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ضربت ضربتى الأولى فبرق البرق الذى رأيتم فأضاء لى منها قصور الحِيَرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ؛ ثم ضربت ضربتى الثانية ، فبرق البرق الذى رأيتم أضاء لى منها قصور قيصر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ؛ ثم ضربت الثالثة فبرق البرق الذى قد رأيتم أضاء لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، فأبشروا؛ فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده ؛ فقال المنافقون : ألا تعجبون ؟ يمنّيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرَق لاتستطيعون أن تبرزوا ، فنزل : (وإذ يقول المنافقون) الخ ، ونزل : (قل اللهم مالك الملك) الآية .

ولما اجتمع هؤلاء الأحزاب الذين حزّبهم اليهود ، وأتوا إلى المدينة رأوا الخندق حائلا بينهم وبينها ، فقالوا : والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها ، ووقعت

مصادمات بين القوم كرّا وفرّا ، فمن المشركين من كان يقتحم الخندق فيرمى بالحجارة ، ومنهم من كان يقتحمه بفرسه فيهلك .

ثم إن نُعَيْم بن مسعود بن عامر من غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلمه أنه أسلم وأن قومه لم يعلموا بذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خُدَعة ، فأتى قريظة وقال لهم : لاتحاربوا مع قريش وغطفان إلا إذا أخذتم منهم رُهُنا من أشرافهم يكونون بأيديكم تقِيَّة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا ، لأنهم رجعوا وسئموا حربه ، وإنكم وحدكم لاتقدرون عليه ، وذهب إلى قريش وإلى غطفان ، فقال لهم : إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رُهُنا يدفعونها لمحمد ، فيضرب أعناقهم ، ويتحدون معه على قتالكم ، لأنهم ندموا على ما فعلوا من نقض العهد وتابوا ، وهذا هو المخْرَج الذى اتفقوا عليه .

وحينئذ تخاذل اليهود والعرب ، ودبّ بينهم دبيب الفشل . ومما زاد فى فشلهم أن بعث الله عليهم ريحا فى ليلة شاتية شديدة البرد ، فجعلت تكفىء قدورهم ، وتطرح آنيتهم .

وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة يصلى على التل الذى عليه مسجد الفتح ، ثم يلتفت ويقول : هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ فعل ذلك ثلاث مرات ، فلم يقم رجل واحد، من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد ، فدعا حذيفة بن اليمان وقال : ألم تسمع كلامى منذ الليلة ؟ قال حذيفة : فقلت يا رسول الله منعنى أن أجيبك الضُّر والقُرّ ، قال : انطلق حتى تدخل فى القوم ، فتسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم . اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، حتى تردّه إلىّ ، انطلق ولاتحدث شيئا حتى تأتينى ، فانطلق حذيفة بسلاحه ، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده يقول : يا صريخ المكروبين ، ويا مجيب المضطرين ، اكشف همّى وغمى وكربى ، فقد ترى حالى وحال أصحابى فنزل جبريل وقال : إن الله قد سمع دعوتك ، وكفاك هول عدوك ، فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم على

ركبتيه ، وبسط يديه ، وأرخى عينيه ، وهو يقول : شكرا شكرا كما رحمتنى ورحمت أصحابى ، وذهب حذيفة إلى القوم ، فسمع أبا سفيان يقول : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام ، لقد هلك الكُراع والخفّ ، وأخلفتنا بنو قريظة ، و بلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ماترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، فلما رجع أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضحك حتى بدت أنيابه فى سواد الليل .

الإيضاح

(يأيّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها) أى تذكروا أيها المؤمنون نعم الله التى أسبغها عليكم حين حوصرتم أيام الخندق وحين جاءتكم جنود الأحزاب من قريش وغطفان ، ويهود بنى النضير الذين كانوا أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى خَيْبَر ، فأرسلنا عليهم ريحا باردة فى ليلة باردة أحصرتهم ، وسفت التراب فى وجوههم ، وأمر ملائكته ، فقلعت الأوتاد ، وقطعت الأطناب ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وماجت الخيل بعضها فى بعض ، وقذف الرعب فى قلوب الأعداء ، حتى قال طُلَيْحة بن خويلد الأسدى : إن محمدا قد بدأكم بالسحر ، فالنجاء النجاء ، فانهزموا من غير قتال .

قال حذيفة بن اليمان وقد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتى بخبر القوم : خرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم توقد ، و إذا رجل أدهم ضخم (أبو سفيان) يقول : الرحيلَ الرحيلَ لامُقام لكم ، و إذا الرجل فى عسكرهم مايجاوز عسكرهم شبرا ، فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفُرُشهم ، والريح تضربهم ؛ ثم رجعت نحو النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فلما صرت فى منتصف الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بنحو عشرين فارسا معتمّين قالوا : أخبر صاحبك أن الله قد كفاك القوم .

والخلاصة : إنه تعالى يمتنّ على عباده المؤمنين بذكر النعم التى أنعم بها عليهم، إذ صرف عنهم أعداءهم عام تألّبوا عليهم وتحزبوا عام الخندق .

(وكان الله بما تعملون بصيرا) أى وكان الله عليما بجميع أعمالكم من حفركم للخندق ، وترتيب وسائل الحرب لإعلاء كلمة الله ، ومقاساتكم من الجهد والشدائد ما لاحصر له ، بصيرا بها لايخفى عليه شىء منها ، وهو يجازيكم عليها « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

ثم زاد الأمر تفصيلا وبيانا ، فقال :

(إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) أى حين جاءتكم الأحزاب من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وكانوا من غطفان ، ومن تابعهم من أهل نجد ، ومن بنى قريظة والنضير من اليهود ، ومن أسفله من قبل المغرب ، وكانوا من قريش ، ومن شايعهم من الأحابيش ، وبنى كنانة وأهل تهامة .

(وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) أى وحين مالت الأبصار عن سننها ، وانحرفت عن مستوى نظرها حيرة ودهشة ، وخاف الناس خوفا شديدا ، وفزعوا فزعا عظيما ، وظنوا مختلف الظنون ، فمنهم مؤمن مخلص يستنجز الله وعده فى إعلاء دينه ونصرة نبيه ، ويقول : هذا ماوعدنا الله ورسوله ، ومنهم منافق وفى قلبه مرض يظن أن محمدا وأصحابه سيُستأصلون ، ويستولى المشركون على المدينة ، وتعود الجاهلية سيرتها الأولى ، إلى نحو ذلك من ظنون لاحصر لها تجول فى قلوب المؤمنين والمنافقين ، على قدر ما يكون القلب عامرا بالإخلاص مكتوبا له السعادة أو متشككا فى اعتقاده ليست له عزيمة صادقة .

ثم ذكر أن هذه الشدائد محصت المؤمنين ، وأظهرت المنافقين :

(هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) أى حين ذاك اختبر الله المؤمنين ومحصهم أشد التمحيص ، فظهر المخلص من المنافق ، والراسخ الإيمان من المتزلزل ، واضطربوا اضطرابا شديدا من الفزع وكثرة العدو .

(و إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) أى وحين قال المنافقون كمُعتِّب بن قشَير ، والذين فى قلوبهم ضعف فى الإيمان لقرب عهدهم بالإسلام : ما وعدنا الله ورسوله من الظفر والنصر على العدو إلا وعدا باطلا يغرّنا به و يوقعنا فيما لاطاقة لنا به ، و يسلخنا عن دين آبائنا ، و يقول : إن هذا الدين سيظهر على الدين كله ، و إنه سيفتح لنا فارس والروم ، وها نحن أولاء قد حُصِرنا ها هنا حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته .

(و إذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا) أى وحين قالت جماعة من المنافقين كعبد الله بن أبىّ وأصحابه : يا أهل المدينة ليس هذا المقام بمقام لكم فارجعوا إلى منازلكم ليكون ذلك أسلم لكم من القتل ، وقد يكون المعنى : لامقام لكم فى دين محمد فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الشرك وأسلموا محمدا إلى أعدائه .

(و يستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة) أى و يطلب جماعة منهم من النبى صلى الله عليه وسلم الرجوع إلى بيوتهم وتركهم للقتال ، وهم بنو حارثة ، معتذرين بمختلف المعاذير كقولهم : إن بيوتنا مما يلى العدو ذليلة الحيطان يخاف عليها من السرّاق ، والحقيقة أنهم كاذبون فيما يقولون ، وهم مضمرون غير ذلك .

ثم بين السبب الحقيقى لهذه المقالة ، فقال :

(إن يريدون إلا فرارا) أى وما يريدون بالاستئذان إلا الفرار من القتال والهرب من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم مساعدة المؤمنين .

ثم بين وهن الدين وضعفه فى قلوبهم إذ ذاك ، وأنه معلق بخيط دقيق ينقطع بأدنى هزة ، فقال :

(ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا) أى ولو دخل عليهم الأحزاب من جوانب بيوتهم ، ثم طلبوا إليهم أن يرتدوا عن دينهم و يرجعوا إلى شركهم بربهم ـ لفعلوا ذلك مسرعين من شدة الهلع والجزع .

وفى هذا إيماء إلى أن الإيمان لاقرار له فى نفوسهم ، ولا أثر له فى قلوبهم ، فهو لايستطيع مقابلة الصعاب ، ولامقاومة الشدائد ، فلا تعجب لاستئذانهم وطلبهم الهرب من ميدان القتال .

والخلاصة : إن شدة الخوف والهلع الذى تمكن فى قلوبهم مع خبث طويتهم ، وإضمارهم النفاق ـ يحملهم على الإشراك بالله والرجوع إلى دينهم عند أدنى صدمة من العدوّ تحصل لهم ، فإيمانهم طلاء ظاهرى لاأثر له فى نفوسهم بحال ، فلا عجب إذا هم تسللوا لواذا ، وبلغ الخوف من نفوسهم كل مبلغ .

ثم بين أن لهم سابقة عهد بالفرار وخوف اللقاء من الكماة ، فقال :

(ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار) أى ولقد كان هؤلاء المستأذنون وهم بنو حارثة قد هربوا يوم أُحد وفرّوا من لقاء عدوهم ، ثم تابوا وعاهدوا الله ألا يعودوا إلى مثلها وألا ينكثوا على أعقابهم حين قتالهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

ثم بين ما للعهد من حرمة ، فقال :

(وكان عهد الله مسئولا) أى وعهد الله يسأل عن الوفاء به يوم القيامة ويجازى عليه .

ثم أمر الله رسوله أن يقول لهم : إن فراركم لايؤخر آجالكم ، ولايطيل أعماركم ، فقال :

(قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل) أى قل لهؤلاء المستأذنين الفارّين من قتال العدو ومنازلته فى الميدان : لن ينفعكم الهرب ولايدفع عنكم ما أُبْرِم فى الأزل من موت أحدكم حتف أنفه ، أوقتله بسيف ونحوه ، فإن المقدر كائن لامحالة والأجل إن حضر لم يتأخر بالفرار ، وكان علىّ يقول عند اللقاء : دهَم الأمر ، وتوقَّد الجمر .

أىَّ يومىّ من الموت أفرّ   يومَ لا يُقدر أم يوم قُدِر
يوم لا يُقدَر لا أرهَبُه   ومن المقدور لا يُنجِى الحذَر

(و إذاً لا تمتَّعون إلا قليلا) أى و إن نفعكم الفرار بأن دفع عنكم الموت فتمتعتم لم يكن ذلك التمتع إلا قليلا ، فإن أيام الحياة و إن طالت قصيرة ، فعمر تأكله الدقائق قليل و إن كثر ، كما قال أحمد شوقى بك :

دقات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثوانى

ولما كانوا ربما يقولون : بل ينفعنا لأنا طالما رأينا من هرب فسلم ، ومن ثبت فاصْطُلِم ـ أمره الله بالجواب عن هذا ، فقال :

(قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة) أى قل لهم : لا أحد يستطيع أن يمنع عنكم شرا من قتل أو بلاء قدره الله عليكم ، أو يؤتيكم خيرا إن لم يكن أراده الله .

والخلاصة : هل احترزتم فى جميع أعمالكم عن سوء فنفعكم الاحتراز ، أو اجتهد غيركم فى منع الخير عنكم فتمّ له ما أراد ؟ .

و إجمال القول : إن النفع والضر بيده سبحانه ، وليس لغيره فى ذلك تصريف ولا تبديل .

ثم أكد هذا بقوله :

(ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) أى ولا يجد هؤلاء المنافقون وليا ينفعهم غير الله ولا نصيرا يدفع السوء عنهم .

و بعد أن أخبر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بمقالة المنافقين لأهل المدينة وأمره بوعظهم ـ حذرهم بدوام علمه بمن يخون الله ورسوله بقوله :

(قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا) أى إن ربك أيها الرسول ليعلم حق العلم من يثبطون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم و يصدونهم

عنه ، وعن شهود الحرب معه نفاقا منهم وتخذيلا عن الإسلام ، ويعلم الذين يقولون لأصحابهم وخلطائهم من أهل المدينة : تعالَوْا إلى مانحن فيه من الظلال والثمار ، ودعوا محمدا فلا تشهدوا معه مشهدا ، فإنا نخاف عليكم الهلاك .

قال قتادة : كان المنافقون يقولون لإخوانهم من ساكنى المدينة من الأنصار : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس (يريدون أنهم قليلو العدد) ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، فدعوه فإنه هالك .

(ولا يأتون البأس إلا قليلا) أى ولا يأتون الحرب إلا زمنا قليلا ، فقد كانوا لا يأتون المعسكر إلا ليراهم المخلصون ، فإذا غفلوا عنهم تسللوا لواذا وعادوا إلى بيوتهم .

ثم ذكر بعض معايبهم من البخل والخوف والفخر الكاذب ، فقال :

(١) (أشحة عليكم) أى بخلاء عليكم بالنفقة والنصرة ، فهم لا يودون مساعدتكم لا بنفس ولا بمال .

(٢) (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) أى فإذا بدأ الخوف بكرّ الشجعان وفرّهم فى ميدان القتال — رأيتهم ينظرون إليك ، وقد دارت أعينهم فى رءوسهم فرقا وخوفا كدوران عين الذى قرب من الموت وغشيته أسبابه ، فإنه إذ ذاك يذهب لبه ، ويشخص بصره ، فلا يتحرك طرفه .

(٣) (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) أى فإذا كان الأمن تكلموا فصيح الكلام ، وفخروا بما لهم من المقامات المشهودة فى النجدة والشجاعة ، وهم فى ذلك كاذبون .

قال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوؤه مقاسمة ، يقولون : أعطونا أعطونا قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق .

ثم بين ما دعاهم إلى بسط ألسنتهم فيهم ، فقال :

(أشحة على الخير) أى هم بخلاء حريصون على الغنائم إذا ظفر بها المؤمنون ، لايريدون أن يفوتهم شىء مما وصل إلى أيديهم .

والخلاصة : إنهم حين البأس جبناء ، وحين الغنيمة أشحاء .

أفى السلم أعيارٌ جفاء وغلظةً وفى الحرب أمثال النساء العواتك

و بعد أن وصفهم بما وصفهم به من دنىء الصفات ـ بيّن مادعاهم إليها ، وهو قلة ثقتهم بالله لعدم تمكن الوازع النفسى فى قلوبهم ، فقال :

(أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم) أى هؤلاء الذين بسطت أوصافهم لم يصدّقوا الله ورسوله ، ولم يخلصوا له العمل ، لأنهم أهل نفاق ، فأبطل الله أعمالهم ، وأذهب أجورها ، وجعلها هباء منثورا .

(وكان ذلك على الله يسيرا) أى وكان ذلك الإحباط هينا على الله لايبالى به ، إذهم قوم فعلوا ما يستوجبه و يستدعيه ، فاقتضت حكمته أن يعاملهم بمايقتضيه عدله ، وتدل عليه حكمته .

ثم أبان مقدار الجبن والهلع الذى لحق بهم ، فقال :

(يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) أى هم من شدة الهلع والخوف ، وعظيم الدهشة والحيرة لايزالون يظنون أن الأحزاب من غَطَفان وقريش لم يرحلوا ، وقد هزمهم الله ورحلوا ، وتفرقوا فى كل وادٍ .

و إجمال القول : إنهم لما لم يقاتلوا لجبنهم ، وضعف إيمانهم ، فكأنهم غائبون ، فظنوا أن الأحزاب لم يرحلوا ، وقد كانوا راحلين منهزمين لايلوون على شىء .

(و إن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم) أى و إن يأت الأحزاب و يعودوا مرة أخرى تمنوا أن لو كانوا مقيمين فى البادية بعيدين عن المدينة ، حتى لاينالهم أذى ولامكروه ، و يكتفون بأن يسألوا عن أخباركم كل قادم من جانب المدينة ، وفى هذا كفاية لديهم لجبنهم ، وخور عزائمهم .

(ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا) أى ولو كان هؤلاء المنافقون فيكم فى الكرة

السابقة ، ولم يرجعوا إلى المدينة ، وكان القتال قتال جلاد وكرّ وفرّ ، وطعن وضرب ، ومحاربة بالسيوف ، ومبارزة فى الصفوف ـ ما قاتلوا إلا قتالا يسيرا رياء وخوفا من العار ، لاقتالا يحتسبون فيه الثواب من الله وحسن الأجر .

وبعد أن فصل أحوالهم ، وشرح نذالتهم ، وعظيم جبنهم ـ عاتبهم أشد العتب ، وأبان لهم أنه قد كان لهم برسول الله معتبر لو اعتبروا ، وأسوة حسنة لو أرادوا التأسى ، فقال :

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) أى إن المُثُل العالية ، والقدوة الحسنة ماثلة أمامكم لو شئتم ، فتحتذون الرسول فى أعماله ، وتسيرون على نهجه لو كنتم تبتغون ثواب الله ، وتخافون عقابه إذا أزفت الآزفة ، وعدم النصير والمعين ، إلا العمل الصالح ، وكنتم تذكرون الله ذكرا كثيرا ، فإن ذكره يؤدى إلى طاعته ، ويحقق الائتساء برسوله .

وخلاصة ذلك : هلا اقتديتم بالرسول وتأسيتم بشمائله .

ولما ذكر سبحانه حال المنافقين ـ ذكر حال المؤمنين حين لقاء الأحزاب ، فقال :

(ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) أى ولما أبصر المؤمنون الصادقون المخلصون لله فى القول والعمل ـ الأحزاب الذين أدهشت رؤيتهم العقول ، وتبلبلت لها الأفكار ، واضطربت الأفئدة ـ قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار الذى يعقبه النصر فى نحو قوله : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » ، وقوله : « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم ، والعاقبة لكم عليهم » وقوله : « إنهم سائرون إليكم تسعا أو عشرا » أى فى آخر تسع ليال أوعشر من حين الإخبار .

وصدق الله ورسوله فى النصرة والثواب كما صدق الله ورسوله فى البلاء والاختبار وما زادهم ذلك إلا صبرا على البلاء ، وتسليما للقضاء ، وتصديقا بتحقيق ما كان الله ورسوله قد وعدهم .

ثم وصف سبحانه بعض الكملة من المؤمنين الذين صدقوا عند اللقاء ، واحتملوا البأساء والضراء ، فقال :

(من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا) أى ومن المؤمنين بالله والمصدقين برسوله رجال أوفوا بما عاهدوا الله عليه من الصبر فى اللأواء وحين البأساء ، فاستشهد بعض يوم بدر ، و بعض يوم أُحد ، و بعض فى غير هذه المواطن ، ومنهم من ينتظر قضاءه والفراغ منه كما قضى من مضى منهم على الوفاء لله بعهده ، وما غيروه وما بدلوه .

أخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى فى جماعة آخرين عن أنس قال : « غاب عمى أنس بن النضر عن بدر ، فشق عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، لئن أرانى الله تعالى مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد ليَرَيَنَّ الله تعالى ما أصنع ، فشهد يوم أُحد ، فاستقبله سعد بن مُعاذ رضى الله عنه ، فقال : يا أبا عمرو إلى أين ؟ قال : واها لريح الجنة أجدها دون أُحد ، فقاتل حتى قتل ، فوُجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ، ونزلت هذه الآية : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) الخ .

وروى صاحب الكشاف أن رجالاً من الصحابة نذروا أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ، وهم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد ، وحمزة ومُصْعب بن عُمَير ، وجمع غيرهم .

ثم بيّن العلة فى هذا الابتلاء والتمحيص ، فقال :

(ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم)

أى إنه سبحانه إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر أمر كل منهما جليا واضحا كما قال : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » وقال : « مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ » ثم يثيب أهل الصدق منهم بصدقهم بما عاهدوا الله عليه ، ووفائهم له به ، ويعذب المنافقين الناقضين لعهده ، المخالفين لأوامره ، إذا استمروا على نفاقهم حتى يلقوه ، فإن تابوا ونزعوا عن نفاقهم ، وعملوا صالح الأعمال غفر لهم ربهم ما أسلفوا من السيئات ، واجترحوا من الآثام والذنوب .

ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هى الغالبة قال :

(إن الله كان غفورا رحيما) أى إنه تعالى من شأنه الستر على ذنوب التائبين والرحمة بهم ، فلا يعاقبهم بعد التوبة ، وفى هذا حثٌّ عليها فى كل حين ، وبيان نفعها للتائبين .

ثم رجع يحكى بقية القصص وفصل ذلك تتميما للنعمة التى أشار إليها إجمالا بقوله : « فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها » ووسط بينهما بإيضاح مانزل بهم من الطامة التى تحير العقول والأفهام ، والداهية التى زلت فيها الأقدام وما صدر من الفريقين المؤمنين وأهل الكفر والنفاق من الأحوال والأقوال ، لإظهار عظمة النعمة وإبانة جليل خطرها ، ومجيئها حين اشتداد الحاجة إليها فقال :

(ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال) أى فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ورددنا الذين كفروا بالله ورسوله من قريش وغطفان بغمهم بفوت ما أمّلوا من الظفر وخيبتهم فيما كانوا طمعوا فيه من الغلبة والنصر على محمد وصحبه ، إذ لم يصيبوا مالاً ولا إسارا ولم يحتج المؤمنون إلى منازلتهم ومبارزتهم لإجلائهم عن بلادهم ، بل كفى الله المؤمنين القتال ، ونصر عبده ، وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . فلاشىء بعده .

روى الشيخان من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده » .

ورويا أيضا عن عبد الله بن أوفى قال : « دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب فقال : اللهم منزّل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم » .

وروى محمد بن إسحاق أنه لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزوهم » وقد تحقق هذا فلم تغزهم قريش بعد ذلك ، بل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزوهم حتى فتح الله تعالى مكة .

(وكان الله قويًّا عزيزاً) أى وكان الله عزيزا بحوله وقوته فردهم خائبين لم ينالوا خيرا .

ولما قص أمر الأحزاب وذكر ما انتهى إليه أمرهم ذكر حال من عاونوهم من اليهود فقال :

(وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم) أى وأنزل الله يهود بنى قريظة الذين عاونوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم بعد أن نقضوا العهد بسفارة حُيىّ بن أخطب النضيرى ، إذ لم يزل بزعيمهم كعب ابن أسد حتى نقض العهد وكان مما قاله له : جئتك بعزّ الدهر ، أتيتك بقريش وأحابيشها وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون ها هنا حتى يستأصلوا محمدا وأصحابه ، فقال له كعب : بل والله جئتنى بذل الدهر ، ويحك يا حيىّ إنك مشئوم فدعنا منك ، فلم يزل يفتل له فى الذروة والغارب (يخادعه) حتى أجابه ، واشترط له حيىّ إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شىء أن يدخل معهم فى الحصن فيكون أسوتهم .

ولما أيد الله المؤمنين وكبت أعداءهم وردهم خائبين ورجع إلى المدينة ووضع الناس

السلاح - أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن انهض إلى بنى قريظة من فورك، فأمر الناس بالسير إليهم، وكانوا على أميال من المدينة بعد صلاة الظهر وقال صلى الله عليه وسلم «لايصلينّ أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة» فسار الناس فأدركتهم الصلاة، فصلى بعض فى الطريق، وقال آخرون: لانصليها إلا فى بنى قريظة فلم يعنف واحدا من الفريقين.

(وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقاً) أى وألقى الرعب فى قلوبهم حين نازلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة، فنزلوا على حكم سعد بن مُعاذ سيد الأوس؛ لأنهم كانوا حلفاءهم، فأحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: إن هؤلاء نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت، فقال رضى الله عنه: وحكمى نافذ فيهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نعم» فقال إنى أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم وأموالهم. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله» ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأخاديد فخدّت فى الأرض وجىء بهم مكتوفى الأيدى فضربت أعناقهم وكانوا ما بين سبعمائة وثمانمائة، وسبى من لم ينبت منهم مع النساء، وسبى أموالهم.

والخلاصة - إنه قذف الرعب فى قلوبهم حتى أسلموا أنفسهم للقتل وأهليهم وأموالهم للأسر.

(وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها) أى وأورثكم مزارعهم ونخيلهم ومنازلهم وأموالهم التى ادخروها وماشيتهم من كل ثاغية وراغية، وأرضاً لم تطئوها وهى الأرضون التى سيفتحها المسلمون حتى يوم القيامة، قاله عِكْرِمة واختاره أبو حيان.

(وكان الله على كل شىء قديراً) أى وكان الله قديراً على أن يورثكم ذلك، وعلى أن ينصركم عليهم، إذ لايتعذر عليه شىء أراده، ولا يمتنع عليه فعل شىء حاول فعله.

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيماً (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (٣٠)

شرح المفردات

زينة الدنيا : زخرفها ونعيمها ، فتعالين : أى أقبلن باختياركن واخترن أحد الأمرين ، أمتعكن: أى أعطكن المتعة، وهى قميص وغطاء للرأس وملحفة ـ مُلاءة ـ على حسب السعة والإقتار ، وأسرحكن : أى أطلقكن ، سراحا جميلا : أى طلاقا من غير ضرار ولا مخاصمة ولا مشاجرة ، بفاحشة : أى فعلة قبيحة كنشوز وسوء خلق واختيار الحياة الدنيا وزينتها على الله ورسوله ، مبينة : أى ظاهرة القبح من قولهم : بين كذا بمعنى ظهر وتبين ، ضعفين : أى ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه ، يسيرا : أى هيناً لا يمنعه عنه كونهن نساء النبى ، بل هذا سبب له .

المعنى الجملى

بعد أن نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فرد عنه الأحزاب وفتح عليه قريظة والنضير ظن أزواجه رضى الله عنهن أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدن حوله وقلن يا رسول الله : بنات كسرى وقيصر فى الحلى والحلل ، والإماء والخوَل ـ الخدم والحشم ـ ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق ، وآلمن قلبه الشريف بمطالبهن من توسعة الحال ومعاملتهن معاملة نساء الملوك وأبناء الدنيا من التمتع بزخرفها من المأكل والمشرب ونحو ذلك فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل فى شأنهن .

روى أحمد عن جابر رضى الله عنه قال : « أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والناس ببابه جلوس ، والنبى صلى الله عليه وسلم جالس فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلا ، والنبى صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نساؤه وهو ساكت ، فقال عمر لأكلمنّ النبى صلى الله عليه وسلم لعله يضحك ، قال : يا رسول الله ! لو رأيت ابنة زيد ــ امرأة عمر ــ سألتنى النفقة آنفاً فوجأت عنقها ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال «هنّ حولى يسألننى النفقة» فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة ، كلاهما يقول: تسألان النبى صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ، فنهاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن : والله لانسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، وأنزل الله عز وجل الخيار ، فبدأ بعائشة رضى الله عنها فقال لها إنى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك ، قالت وما هو؟ فتلا عليها : « يأيها النبى قل لأزواجك » الآية . قالت عائشة رضى الله عنها : أفيك أستأمر أبوىّ ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لم يبعثنى معنّفاً ولكن بعثنى معلّماً ميسراً ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترتِ إلا أخبرتها » رواه مسلم والنسائى .

ثم وعظهن بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة وخصهن بأحكام يجدر بمثلهن أن يستمسكن بها لما لهن من مركز ممتاز بين نساء المسلمين ، لأنهن أمهات المؤمنين وموضع التجلة والكرامة ، إلى أنهن فى بيت صاحب الدعوة الإسلامية ، ومنه انبعث نور الهدى والطهر والعفاف ، فأجدِرْ بهن أن يكنّ المُثُل العليا فى ذلك ، ويكنّ قدوة يأتسى بهن نساء المؤمنين جميعا ، ويا لها منقبة أوتيت لهن دون سعى ولا إجحاف منهن ، بل هى منحة أكرمهن الله بها ، فله الحمد فى الآخرة والأولى .

الإيضاح

(يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتنّ تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكنّ وأسرحكنّ سراحا جميلا) أى يأيها الرسول قل لأزواجك: اخترن لأنفسكن إحدى خلتين : أولاهما أن تكنّ ممن يحببن لذّات الدنيا ونعيمها والتمتع بزخرفها فليس لكنّ عندى مقام ، إذ ليس عندى شىء منها ، فأقبلن علىّ أعطيكن ما أوجب الله على الرجال للنساء من المتعة عند فراقهم إياهن بالطلاق ، تطييباً لخاطرهن وتعويضا لهن عما لحقهن من ضرر بالطلاق ، وهى كسوة تختلف على حسب الغنى والفقر واليسار والإقتار كما قال تعالى : « وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ » ثم أسرحكن وأطلقكن على ما أذن الله به وأدب به عباده بقوله : « إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ » وكان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ تسع نسوة : خمس من قريش : عائشة وحفصة وأمّ حَبيبة وسَوْدَة وأم سلمَة رضى الله عنهن ؛ وأربع من غير القرشيات : زينب بنت جحش الأسدية ، وميمونة بنت الحرث الهلالية ، وصفية بنت حيىّ بن أخطب النضيرية ، وجُوَيْرية بنت الحرث المصطلقية .

وحين نزلت هذه الآية عرض عليهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وبدأ بعائشة وكانت أحبّ أهله إليه فخيّرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ، ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تابعها بقية نسائه .

ثم ذكر ثانية الخلتين فقال :

(وإن كنتنّ تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجرا عظيما) أى وإن كنتن تردن رضا الله ورضا رسوله وثواب الدار الآخرة فأطعنهما فإن الله أعد للمحسنات منكن فى أعمالهن القولية والفعلية ثوابا عظيما تستحقر الدنيا وزينتها دونه ، كفاء إحسانهن .

والخلاصة — أنتنّ بين أحد أمرين : الإقامة معه والرضا بما قسم الله لـكنّ والعمل لطاعة الله ، وأن يمتعكن و يفارقـكن إن لم ترضين بذلك .

و بعد أن خيرهن واخترن الله ورسوله ـ أتبع ذلك بعظتهن وتهديدهن إذا هن فعلن ما يسوء النبي صلى الله عليه وسلم وأوعدهن بمضاعفة العذاب فقال :

(يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا) أى من يعص منكن الرسول صلى الله عليه وسلم و يطلب ما يشق عليه و يضيق به ذرعا و يغتم لأجله ـ يضاعف لها العذاب يوم القيامة ضعفين ، أى تعذب ضعفى عذاب غيرها ، لأن قبح المعصية منهن أشد ، ومن ثم كان ذم العقلاء للعالم العاصى أشد منه للجاهل العاصى ، وكان ذلك سهلا يسيرا على الله الذى لا يحابى أحداً لأجل أحد ، إذ كونهن نسـاء رسوله ليس يغنى عنهن شيئا ، بل هو سبب لمضاعفة العذاب .

روى أن رجلا قال لزين العابدين رضى الله عنه : إنكم أهل بيت مغفور لـكم ، فغضب وقال: نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله فى أزواج النبى صلى الله عليه وسـلم من أن نكون كما قلت ، إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ، ولمسيئنا ضعفين من العذاب وقرأ هذه الآية والتى بعدها .

و إلى هنا تم ما أردنا من تفسير هذا الجزء من كلام ربنا القديم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وكان الفراغ من مسودّته صبيحة يوم الثلاثاء لسبع بقين من جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وثلثمائة وألف من الهجرة النبوية بحلوان من أرباض القاهرة كورة الديار المصرية .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٧٥	جواز استعمال الطبل والدف فى إعلان النكاح .
٧٧	الاستدلال على وحدانية الله .
٧٨	حكمة لقمان .
٧٩	عظة لقمان لابنه .
٨٢	وصيته سبحانه بحسن معاملة الوالدين .
٨٢	تأكيد الوصية بالأم خاصة .
٨٣	حديث سعد بن أبى وقاص مع أمه .
٨٤	وصية لقمان لابنه بإقامة الصلاة .
٨٥	تحذيره لابنه من تصعير الخد مرحا .
٨٦	الأمر بغض الصوت .
٨٩	تقليد المشركين للآباء والأجداد .
٩٠	حال المستسلم المفوض أمره إلى الله .
٩٢	المشركون يقرون بأن خالق السموات والأرض هو الله .
٩٤	عظمة الله لايحيط بها أحد .
٩٧	الدلائل الأرضية على وحدانية الله سبحانه .
٩٨	الأمر بتقوى الله وخشيته خوفا من ذلك اليوم الذى لاينفع فيه مال ولا بنون .
٩٩	التحذير من غرور الدنيا والشيطان .
١٠٠	خمس لايعلمهن إلا الله .
١٠١	مجمل سورة لقمان .